وصية الإمام علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه –
لابنه الحسن
دراسة تحليلية نقدية في ضوء المنهج الاجتماعي

إعداد

د/ وائل صلاح إسماعيل محمود

مدرس الأدب والنقد

في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

وصية الإمام علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – لابنه الحسن دراسة تحليلية نقدية في ضوء المنهج الاجتماعي

وائل صلاح إسماعيل محمود

قسم الأدب والنقد في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

البريد الإلكتروني : Waelsalah.2034@azhar.edu.eg

الملخص :

تدور فكرة هذا البحث حول دراسة وصية الإمام علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – المطولة لابنه الحسن من كتاب نهج البلاغة ، والتي كتبها إليه عقب انصرافه من موقعة صفين وذلك ببلدة حاضرين بالعراق .

وجاء هذا البحث في مقدمة وتمهيد وخمسة مباحث وذلك علي النحو التالي :

المقدمة وتناولت من خلالها التعريف بموضوع البحث وأهميته وخطة السير فيه، ثم التمهيد وتناولت فيه الحديث عن فن الوصية وتطورها عبر العصور مبتدأ بالحديث عن الوصية في العصر الجاهلي ، ثم الحديث عن الوصية في العصر النبوي ، ثم الحديث عن الوصية في عصور الخلفاء الراشدين ، وصولًا إلي الوصية في عهد الإمام علي بن أبي طالب .

ثم بعد ذلك المبحث الأول وجاء بعنوان (دوافع وصية الإمام عليّ لابنه الحسن) ، ثم المبحث الثاني بعنوان (المحاور والأفكار الرئيسية في الوصية محل الدراسة) ، ثم المبحث الثالث بعنوان (ملامح وسمات شخصية الإمام علي بن أبي طالب من وصيته) ، ثم المبحث الرابع بعنوان (ملامح وسمات شخصية الإمام الحسن من الوصية) ، ثم المبحث الخامس بعنوان (الخصائص والسمات الفنية والأسلوبية في الوصية) ، ثم بعد ذلك خاتمة البحث ونتائجه ، مبيناً بتلك الدراسة أهمية وقيمة تلك الوصية العلوية ومدي ملائمتها للأجيال في كل زمان ومكان .

الكلمات المفتاحية : وصية الإمام علي بن أبي طالب – الإمام الحسن بن علي – صفّين – بلدة حاضرين – سمات شخصية الإمام علي

The will of Imam Ali bin Abi Talib - may God bless him - for his son al-Hassan, a critical analytical study in the light of the social approach

Wael Salah Ismail Mahmoud
Department of Literature and Criticism at the College of Arabic Language in Itay Al-Baroud
E-mail : Waelsalah.2034@azhar.edu.eg

Abstract :
The idea of this research revolves around studying the lengthy will of Imam Ali bin Abi Talib - may God bless him - to his son Al-Hassan from the book Nahj Al-Balaghah, which he wrote to him after his departure from the two rows in the town of Hadaren in Iraq.
This research came in an introduction, preface, and five sections, as follows:
Introduction through which I dealt with the definition of the research topic, its importance, and the plan to walk in it, then the preface and dealt with the discussion about the art of the will and its development through the ages, beginning with talking about the will in the pre-Islamic era, then talking about the will in the Prophet's era, then talking about the will in the eras of the Rightly Guided Caliphs, up to The will in the era of Imam Ali bin Abi Talib.
Then after that the first topic came under the title (Motives of Imam Ali's Will to his Son Al Hassan), then the second topic entitled (The main themes and ideas in the will in question), then the third topic entitled (Features and Characteristics of Imam Ali bin Abi Talib from his Will), then the fourth topic Entitled (Features and Characteristics of Imam al-Hassan from the Will), then the Fifth Study entitled (Technical and Stylistic Features and Features in the Will), then after that the conclusion of the research and its results, indicating with that study the importance and value of this supreme commandment and its suitability for generations in every time and place.

Key words : The Will Of Imam Ali Bin Abi Talib - Imam Al Hassan Bin Ali - Siffin - Town Of Attendants - Personality Traits Of Imam Ali

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، حمدا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه ، والصلاة والسلام علي سيد الخلق أجمعين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، ورحمة الله إلي العالمين ، سيدنا ومولانا محمد وعلي آل بيته الطيبين الطاهرين ، وعلي أصحابه الغرِّ الميامين ، ومن اهتدي بهديهم إلي يوم الدين .

وبعد

فإنَّ في أدب الإمام " علي بن أبي طالب " – كرم الله وجهه – وعلمه ما يأخذ بالألباب ، ويُضئ الدُروب ، ويجذب أنظار وعقول الباحثين إليه ، ففيه من الدُررِ الأدبية والفكرية ما يمتع العقل ويُثري الوجدان ، ومن المنافع الدينية والدنيوية ما يُسعدَ المرء ويُصلحُ له أمر الدارين .

ويعد الإمام علي بن أبي طالب من الخلفاء الأدباء ، والكتّاب البلغاء، إن لم يكن أفضلهم وأبلغهم علي الإطلاق .

وقد ختمت الخلافة الراشدة بعلي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – الذي لقي ربه شهيدًا ، وكانت حياته منذ طفولته سجلًا حافلًا بالمفاخر والمحامد الزاهية ، فهو أول الناس إسلاما وإيمانا بالإسلام ، وهاجر إلي المدينة ، وشهد بدرًا وأحدًا ، والخندق وبيعة الرضوان ، وجميع المشاهد مع رسول الله – صلي الله عليه وسلم – إلا تبوك ، حيث إن رسول الله – صلي الله عليه وسلم – خلفَّه علي أهله ، وله في الجميع بلاء عظيم وأثر حسن ، وأعطاه رسول الله اللواء في مواطن كثيرة بيده ، وكانت أعظم المفاخر والمآثر التي حظي بها الإمام علي وسام وشرف مُآخَاتِه للنبي الكريم – صلي الله عليه وسلم – يوم أن آخي النبي بين المهاجرين ، ثم آخي بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة ، وفي كل مرة كان يقول لعلي بن أبي طالب : " أنت أخي في الدنيا والآخرة " .[1]

١) أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير المحقق: علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى سنة النشر: ١٤١٥هـ – ١٩٩٤ م . ٤ / ٨٧ .

وكان رسول الله – صلي الله عليه وسلم – أعلم الناس به ، فهو الذي ربَّاه علي عينيه ، إذ أخذه من أبيه وهو صغير في سنة نزل فيها بقريش قحطٌ شديد ، وأخذ حمزة جعفرا ، وأخذ العباس طالبا ، ليكُفُّوا أباهم مؤنتهم ، ويخففوا عنه ثقلهم ، وأخذ أبو طالب عقيلا لميله إليه ، فقال رسول الله – صلي الله عليه وسلم – اخترت من اختار الله لي عليكم عليا "[١] .

ولقد آتاه الله نصيبًا وحظًا وافرًا وعظيمًا من العلم والحكمة ، إذ أخذ العلم عن رسول الله صلي الله عليه وسلم – الذي قال فيه : " أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها " [٢] .

وتميزت مدة خلافة الإمام علي بن أبي طالب بالعديد من الفتن والأحداث الجسام ، حيث عاش سني حياته مأساة متصلة الحلقات ، فقد تولي الخلافة في ظروف استثنائية قاسية ودامية بعد مقتل الخليفة الثالث " عثمان بن عفان " – رضي اله عنه – وكانت هذه الحادثة الدامية بلاءً لا يدفع ، وقضاءً لا حيلة لأحد في اتقائه ، حيث إن المسئولين عن تلك الحادثة كثيرون متفرقون في كل جانب يناصره أو يعاديه " [٣] .

ولعل كثرة الفتن والقلاقل التي واجهت الإمام علي إبّان خلافته الراشدة هي التي أوقدت جذوة الأدب عنده ، وأزكت بنفسه بواعث الإبداع والإنشاء البياني ، حيث لم تهدأ الثورات ، ولم تتوقف الحيل والمكائد من هنا وهناك ، الأمر الذي جعل الإمام علي يكثر من الخطب والرسائل والوصايا والمناظرات مبتغيا من وراء ذلك استمالة الثائرين ، ورأب صدع المنشقين ، وإخماد نار الفتن والثورات التي أشعلتها الخوارج وأنصار بني أمية .

---

١) مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني المحقق: السيد أحمد صقر الناشر: دار المعرفة، بيروت ص ٤١ .

٢) أخرج الطبراني عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا فَمَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَأْتِهِ مِنْ بَابِهِ " . المعجم الكبير لأبي القاسم الطبراني ، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة الطبعة: الثانية . ١١ / ٦٥ .

٣) عبقرية علي . عباس محمود العقاد طبعة دار نهضة مصر للطبع والنشر ص ٤٣ .

وعُرفَ الإمام علي بن أبي طالب بعلمه الغزير ، وفقهه الواسع المستنير ، وثقافته الشاملة ، وأدبه الرفيع ، وبلاغته العالية في القول والبيان.

ويوجز العقاد جوانب ثقافة الإمام علي – كرم الله وجهه – في قوله : " تبقي له الهداية الأولي في التوحيد الإسلامي والقضاء الإسلامي ، وعلم النحو العربي ، وفن الكتابة العربية مما يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الإسلامية كلها في الصدر الأول من الإسلام ، وتبقي له مع هذا فرائد الحكمة التي تسجل له في ثقافة الأمم عامة ، كما تسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية علي تباين العصور . ففي كتاب نهج البلاغة فيضٌ من آيات التوحيد والحكمة الإلهية تتسع به دراسة كل مشتغل بالعقائد وأصول التأليه وحكمة التوحيد " [1] .

حيث كان الإمام علي بن أبي طالب ذا طابع أدبي سليم ، وسليقة بيانية عالية ، وصال وجال في شتي فنون الأدب والبيان ، وأبدع في كافة مجالات الأدب عامة شعرًا ونثرًا ، ففي ميدان الشعر له ديوان من الشعر العذب البديع ، يجد القارئ فيه لذة الفن ومتعة التذوق ، وسمو الأخلاق والدين ٠

وفي مجال النثر الأدبي كانت للإمام " علي بن أبي طالب " اليدُ الطُولي والقِدح المُعليَّ في هذا الميدان بفنونه وألوانه المتعددة .

حيث جمع له الشريف الرضي – رحمه الله – سِفرًا أدبيًا ضخما وثمينًا ، أسماه بنهج البلاغة ، وشرحه ابن أبي الحديد ، وهو سفر قيم وعظيم يحوي من خطب الإمام علي ورسائله ووصاياه ومناظرات وحكم ما يفوق الإبداع والإمتاع .

وكان رضوان الله عليه أديبًا بليغًا ، له نهجٌ من الأدب والبلاغة يقتدي به المقتدون ، وقسط من الذوق مطبوع يحمده المتذوقون ، وإن تطاولت بينه

---

١) عبقرية علي ص ١٢٧ .

وبينهم السنون ، فهو الحكيم الأديب ، والخطيب المبين ، والمنشئ الذي يتصل إنشاؤه بالعربية ما اتصلت آيات الناثرين والنامين " (١) .

وكانت قدرته – رضي الله عنه – في إنشاء الخطب والرسائل الطوال قدرة لا تباري ، وقد بلغ حد من قدرة الإقناع والتأثير والاستمالة لم يبلغه أحد " (٢) .

ومن أهم وأبرز الفنون الأدبية النثرية التي أجاد وبرع فيها الإمام علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – في هذا الكتاب القيم فن الوصايا ، ذلكم الفن الأدبي الذي أفرغ فيه الإمام عُصارة خبرته وخلاصة تجاربه في الدين والحياة .

حيث كثُرت وصاياه للأفراد والجماعات ، وكلها تدعو إلي التمسك بأهداب الدين ، والتحلي بمكارم الأخلاق ، والبعد عن مساوئها والاحتكام إلي كتاب الله وسنة نبيه – صلي الله عليه وسلم – فيما التبس فيه الناس من أمور وقضايا ، وكثيرا ما كان يحث في وصاياه إلي الحفاظ علي وحدة المسلمين وتجنب الفرقة والشتات ، خاصة بعد فتنة التحكيم الكبرى التي انقسم فيها المسلمون انقساما مريرا إلي فرق وجماعات .

وخلّف الإمام علي بن أبي طالب في مجال الوصايا جانبًا فريدًا ومجيدًا ، اختص به ابنه الحسن – رضي الله عنه – وهو من هو فضلًا وشرفًا ونسبًا (٣) .

---

١) عبقرية علي للعقاد ص ٤ .

٢) أدب الخلفاء الراشدين للدكتور جابر قميحة طبعة دار الكتب الإسلامية ودار الكتاب المصري ص ٣٩٠ .

٣) هو " الحَسَنْ بنُ عَليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، القرشي الهاشمي ، أبو محمد ، سِبْط النبي ، وأمه فاطمة بنت رسول الله ، سيدة نساء العالمين ، وهو سيد شباب أهل الجنة ، وريحانة النبي وشبيهه ، سماه النبي الحسن ، وعَقَّ عنه يوم سابعه ، وحلق شعره وأمر أن يتصدق بزنة شعره فضة ، وهو خامس أهل الكساء " . (أسد الغابة في معرفة الصحابة عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري تحقيق عادل أحمد الرفاعي الناشر دار إحياء التراث العربي سنة النشر ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م بيروت / لبنان ٢– ١٥

حيث أفرده بوصية مُطوَّلةٍ وفريدة ، أوصاه بها في بلدة (حاضرين)[١]، وذلك عقب انصرافه من موقعة صِفِّين .[٢]

وهذه الوصية وصية جامعة ماتعة ، حيث اشتملت علي كل الخواطر والمشاعر الإنسانية والأبوية الفطرية الرحيمة التي تضَّطِرم بنفس كل والد تجاه ابنه ، الذي يرتجيه عقبًا له ، وخلفًا من بعده ، وذكرًا طيبًا له في الحياة وبعد الممات .

واتسمت وصيته لابنه الحسن بالتطويل والإطناب ، وحشد من خلالها الإمام علي جُلّ خبراته ومعارفه الدينية والدنيوية ، وتبدو وكأنها وصية أب مُوّدِعٌ لابنه ، يريد أن يُزودُه ويمدُّهُ بما يصلح له شأن دينه ودنياه ، وتطبعت الوصية بطابع ديني وأخلاقي خالص ، وخلت تماما من أية إشارات سياسية أو ما يتعلق بشئون الخلافة والحكم ، مما أعطي الوصية بعدًا زمانيًا واسعًا وممتدًا، وجعلها صالحة لأن توضع أمام الأبناء في كل جيل وزمان ، الأمر الذي دفعني بشغف وحرص علي قراءة تلك الوصية قراءة أدبية تحليلية ، والوقوف علي ما بها من مضامين وأفكار ومعان ، ودراسة ما بها من صور وأساليب ، محاولا التعرف من خلال دراستها علي أهم السمات والخصائص الشخصية التي اتسم بها كل من المُوصِي والموصي له .

وارتأيت من الأنسب لدراسة تلك الوصية تطبيق المنهج الاجتماعي علي فقراتها وأفكارها المختلفة ، وذلك لملائمة وتناسب هذا المنهج النقدي الحديث مع ظروف وطبيعة تلك الوصية ، حيث إن تلك الوصية هي من إبداع كاتب وأديب فريد ومميز ، وذا صلة وثيقة ومؤثرة في مجتمعه وبيئته

---

١) قرية علي أطراف صِفِّين بالعراق .

٢) حرب دامية وفتنة طاحنة جرت بين جيش علي بن أبي طالب وجيش معاوية بن أبي سفان سنة ٣٧ من الهجرة بسبب الخلاف الذي وقع بين الطرفين بعد مقتل واستشهاد عثمان بن عفان . ينظر في تفصيل تلك الفتنة الكبري كتاب أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه (شخصيته وعصره – دراسة شاملة) لعَلي محمد محمد الصَّلاَّبي الناشر: مكتبة الصحابة، الشارقة – الإمارات عام النشر: ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م . ٢ /٦٦٠ .

التاريخية والإنسانية ، وهو أمير المؤمنين " علي بن أبي طالب " كـــرم الله وجهه .

ومما لا شك فيه أن صلة الأدب بالمجتمع صلة وثيقة ، إذ لا يوجـــد أدب بدون مجتمع ينبثق عنه "[١] .

والمنهج الاجتماعي من المناهج الأساسية فـــي الدراســـات الأدبيـــة والنقدية ، وقد تولد هذا المنهج من المنهج التاريخي ، بمعنـــي أن المنطلـــق التاريخي كان هو التأسيس الطبيعي للمنطلق الاجتماعي عبر محوري الزمان والمكان . وهو منهج يربط بين الأدب والمجتمع بطبقاته المختلفة ، فيكـــون الأدب ممثلًا للحياة علي المستوي الجماعي لا الفردي ، باعتبار أن المجتمع هو المنتج الفعلي للأعمال الإبداعية ، فالقارئ حاضر في ذهن الأديب ، وهو وسيلته وغايته في آن واحد " [٢] .

والمنهج الاجتماعي منهج منبثق عن المنهج التاريخي وبدأ ظهوره مع بداية القرن الثامن عشر بعد أن بدأت الدعوات تنادي بأن الأدب تعبير عـــن المجتمع ومساير له في نشوئه وتطوره ، وبدأ النقاد يدرســـون الأدب علـــي ضوء تلك الدعوات ، فردوه إلي عوامل المجتمع والسياسة والبيئة والنزعات الموروثة في الأجناس " [٣] .

فكانت فكرة هذا البحث حول هذا الموضوع الـــذي لـــم أقـــف علـــي دراسات حوله سوي دراستين : الأولي بعنوان (الأســـاليب البلاغيـــة فـــي وصية الإمام علي إلي ابنه الحسن) للباحث عبد الواحد خلف وساك وهـــي دراسة بلاغية ارتكزت علي ذكر وبيان ما في تلك الوصـــية مـــن بعـــض الصور والأساليب البلاغية .

---

١) البحث الأدبي للدكتور شوقي ضيف طبعة دار المعارف بمصر الطبعة الثاني ص ٩٦ .

٢) من مقال بعنوان المنهج الاجتماعي مفهومه وأصوله . الشبكة العنكبوتية الإنترنت موقع جوجل .

٣) مناهج البحث الأدبي للدكتور سعد ظلام مطبعة الأمانة بالقاهرة ص ١٢ .

والدراسة الأخرى بعنوان (الأنساق التربوية في نهج البلاغة وصية الإمام علي لابنه الحسن) وهي دراسة اجتماعية تربوية مشتركة بين كل من: أنيسة خزعلي، وعواد كاظم الغزي ، ومريم زاخاني ،وذلك ضمن سلسلة إصدارات الرسائل والأطاريح الجامعية بالعراق ، وارتكزت تلك الدراسة علي محاولة رصد القيم والمبادئ التربوية والإصلاحية التي اشتملت عليها تلك الوصية العلوية .

أما فكرة هذا البحث فتقوم علي دراسة هذه الوصية من الناحية الأدبية والنقدية ، في محاولة للوقوف علي ما بها من معان وأفكار ، ومعرفة أبرز السمات والجوانب الشخصية التي تتعلق بطرفي الوصية (الموصي والموصي له)،ثم دراسة الخصائص والسمات الفنية والأسلوبية لتلك الوصية.

وجاءت خطة البحث مشتملة علي مقدمة وتمهيد وخمسة مباحث علي النحو التالي :

المقدمة وتناولت من خلالها التعريف بموضوع البحث وأهميته ، ثم التمهيد وتناولت فيه الحديث عن فن الوصية وتطورها عبر العصور ، ثم المبحث الأول بعنوان (دوافع وصية الإمام علي لابنه الحسن) ، ثم المبحث الثاني بعنوان (المحاور والأفكار الرئيسية في الوصية) ، ثم المبحث الثالث بعنوان (ملامح وسمات شخصية الإمام علي بن أبي طالب من وصيته) ، ثم المبحث الرابع بعنوان (ملامح وسمات شخصية الإمام الحسن من الوصية) ، ثم المبحث الخامس بعنوان (الخصائص والسمات الفنية والأسلوبية في الوصية) ، ثم بعد ذلك خاتمة البحث ونتائجه .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

أولا

التمـــــــــــــــــهيد

الوصية فنٌ أصيلٌ من فنون النثر الأدبي ، قديم قدم وجـــود الإنســـان علي ظهر الأرض ، وهي تعني مجموعة من الخبرات والتوجيهـــات التـــي ينقلها الإنسان إلي من يهمه أمره بقصد النصح والإرشاد والتوجيه .

والوصية في اللغة : اسم لما أوصيت به ، تقو أوصي الرجل ووصَّاه عهد إليه ، تقول : أوصيت له وإليه ، إذا جعلته وصيك ، وتواصي القوم ، أي أوصي بعضهم بعضا " .(١)

ولم يخلُ أدب من الآداب الإنسانية عامة من فن الوصـــايا ، فالآبـــاء والأمهات يوصون أبناءهم ، والكبار يصون الصغار ، والرؤساء يوصـــون الرعية والأتباع ، والعلماء والوعاظ يوصون الحاكمين والمحكومين علي حد سواء ، فهي علي العموم " تذكرة للعاقل وتنبيه للغافل " (٢) .

وحظي الأدب العربي منذ العصر الجاهلي بنصيب وافر من الوصايا، وإن لم يحفظ ويُدوَّن منه إلا القليل ، قياسا بما حفظ وسجل من آثار الشـــعر العربي .

ومعروف أن الجاهليين كانوا لا يقرءون ولا يكتبون ، وبالتالي فـــإن النثر الجاهلي لم يُكتب ولم يَحفظ الرواة منه مثل ما حفظـــوا مـــن الشـــعر الجاهلي ، وتعليل ذلك أن الشعر أسهل حفظًا وأعلق بالقلوب مـــن النثـــر ، وكان لكل شاعر راوية يحفظ شعره ويرويه ، وتوارث الرواة تلك الأشـــعار حتى وصلت إلي عصر التدوين فدُوِّنت ، أما النثر الأدبي فلم يكن له مثـــل هذه المكانة في قلوب الناس " .(٣)

---

١) لسان العرب لابن منظور طبعة دار صادر بيوت الطبعة الأولي مادة وصي ٣٩٤/١ .

٢) المعمرون والوصايا ص ٣٧ .

٣) أدب الوصايا في العصر العباسي إلي نهاية القرن الرابع ، د أحمد أمين الناشـــر مكتبـــة الأنجلـــو المصرية طبعة سنة ١٩٩٠ ص ٩ .

ولعل من أهم وأصدق الوصايا التي وعتها وسجلتها ذاكرة العرب الأدبية تلك الوصايا التي يوجهها الآباء إلي الأبناء والذرية ، فهي تحمل أصدق وأنفع التجارب والخبرات التي اكتسبها الآباء في حياتهم وأرادوا أن يضعوها أمام أبناءهم لتكون نبراسًا لهم في حياتهم ، وميراثًا لهم بعد وفاتهم، تناقله الأجيال للانتفاع ولارتفاع به .

ويعد فنُّ الوصايا من أهم وأقرب الفنون النثرية إلي العامة والخاصة ، وذلك لما تتسم به الوصية من مقدرة بالغة علي التأثير والإقناع في نفوس الناس ، والتعلق الطويل بالأذهان والآذان ، ومخاطبتها لكافة الفئات والأعمار ، حيث تخاطب الصغير والكبير ، والقريب والبعيد ، وهي كذلك أصدق الأجناس والفنون الأدبية وأقربها للواقع والحياة .

ومع ظهور الإسلام اتسع مجال الوصية اتساعا كبيرًا ، وتطورت الوصية تطورا ملحوظا في الأسلوب والاتجاه ، وذلك بعد أن جاء القرآن الكريم بنماذج بديعة وآسرة ومؤثرة من الوصايا ، فكانت الوصايا الإلهية من الحق سبحانه وتعالي لعباده في مواضع كثيرة ومتعددة من القرآن ، من ذلك قوله تعالي " يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ" (١).

وقوله تعالي أيضا : " وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ " (٢) .

وتظهر الوصية القرآنية في أروع صورها في القرآن الكريم من خلال وصية لمان الحكيم لابنه وذلك في قوله تعالي : " وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ () وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ () وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ

١) سورة النساء الآية ١١ .

٢) سورة البقرة الآية ١٣٢ .

مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ () يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ () يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ () وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ () " [١].

وإذا ما انتقلنا إلي رحاب السنة المطهرة نري وجود هذا اللون الأدبي بوفرة بالغة ، واهتمام من الرسول الكريم – صلي الله عليه وسلم – الذي كان بالمؤمنين رؤوفا رحيما ، حيث حفلت سنته المشرفة بالعديد من الوصايا والتوجيهات النبوية الصادقة لجموع المسلمين وللأمة بأسرها ، وذلك لتحقيق مبدأ إصلاح الدين والدنيا معا ، ومن أمثلة وصاياه الشريفة قوله – صلي الله عليه وسلم – لعبد الله بن عباس: " يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ " [٢] .

وتظهر الوصية النبوية كذلك في قوله – صلي اله عليه وسلم – : " إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا إِخْوَانًا، " . [٣]

---

١) سورة لقمان من الآية ١٣ حتى الآية ١٩ .

٢) سنن الترمذي لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م ٤ / ٦٦٧ .

٣) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي
المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ . ٨ / ١٩ .

وسار الخلفاء الراشدون – رضوان اله عليهم – من بعد النبي الكريم – صلي الله عليه وسلم – علي هذا المنوال في الاهتمام بالوصية والإكثار منها ، وتوجيهها إلي كافة أفراد الأمة فرادي وجماعات ، إيماناً منهم بدور الوصية في الحفاظ علي الأمة وسلامتها من الزيغ والفتن .

وتعددت مجالات واتجاهات الوصية عند الخلفاء الراشدين ، فكانت هناك الوصية السياسية التي تهتم بشئون الدولة الإسلامية ومصالح رعاياها .

وكانت هناك الوصية الحربية التي تهتم بأمور الجهاد والفتوحات وحماية الثغور والحدود ، وكانت هناك الوصية الدينية التي تهتم بأمور الدين والعمل بمبادئه .

وظهر في أدب الخلفاء الراشدين نوع خاص من الوصايا وهي التي تعرف بالعهود ، وهي وصية الخليفة أو الحاكم التي كان يكتبها لمن يلي أمور المسلمين من بعده ، كما فعل الخليفة الأول " أبو بكر الصديق " – رضي الله عنه – في وصيته التي كتبها لعمر بن الخطاب – رضي الله عنه – والتي جاء فيها : " إني مستخلفك من بعدي، وموصيك بتقوى الله. إنّ لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدّى الفريضة. وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة بإتباعهم الحق في الدنيا، وثقله عليهم، وحقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا. وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة بإتباعهم الباطل وخفته عليهم في الدنيا وحقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا. إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، والتجاوز عن سيئاتهم، فإذا ذكرتهم قلت:

إني أخاف ألا أكون من هؤلاء. وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم، ولم يذكر حسناتهم، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء. وذكر آية الرحمة مع آية العذاب، ليكون العبد راهبا، ولا يتمنى على الله إلا الحق، ولا يلقي بيده إلى التهلكة. فإذا حفظت وصيتي فلا يكونن

غائب أحبّ إليك من الموت، وهو آتيك. وإن ضيعت وصيتي، فلا يكـــونن غائب أبغض إليك من الموت، ولست بمعجز الله " [١] .

أما " الخلفية الثاني الفاروق " عمر بن الخطاب " – رضي اله عنه – فكان مكثرًا من الوصايا في شتي المجالات ، حيث كان يوصي قادته وعماله علي الأمصار بالعدل بين الرعية ، وتقوي الله فيما بين أيديهم مـــن شـــئون ومصالح ، ومما جاء في ذلك : " كان عمر بن الخطاب رضي الله عنـــه إذا بعث أمراء الجيوش أوصاهم بتقوى الله العظيم، ثم قال عند عقد الألوية: بسم الله وعلى عون الله وامضوا بتأييد الله بالنصر وبلزوم الحق والصبر، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. لا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثّلوا عند القدرة ولا تسرفوا عنـــد الظهـــور ولا تقتلـــوا هرمـــا ولا امرأة ولا وليدا " [٢] .

وخلَّف كذلك الخليفة الثالث " عثمان بن عفان " – رضي الله عنـــه – العديد من الوصايا التي كانت تدور حول التمسك بالدين واتباع الحق ، نري ذلك في قوله لعمال الخراج : " أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ، فَلا يَقْبَلُ إِلا الْحَقَّ، خُذُوا الْحَقَّ وَأَعْطُوا الْحَقَّ بِهِ وَالأَمَانَةَ الأَمَانَـــةَ، قُومُـــوا عَلَيْهَـــا، وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ يَسْلُبُهَا، فَتَكُونُوا شُرَكَاءَ مَنْ بَعْدَكُمْ إِلَى مَا اكْتَسَبْتُمْ وَالْوَفَاءَ الْوَفَاءَ، لا تَظْلِمُوا الْيَتِيمَ وَلا الْمُعَاهَدَ، فَإِنَّ اللَّهَ خَصْمٌ لِمَنْ ظَلَمَهُمْ " [٣] .

---

١) البيان والتبيين للجاحظ ا لناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت عام النشر: ١٤٢٣ هـــ ٢ / ٣١ .

٢) عيون الأخبار أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتـــوفى: ٢٧٦هـــ)الناشـــر: دار الكتب العلمية –بيروت تاريخ النشر: ١٤١٨ هـــ ١ / ١٨٥ .

٣) تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، المؤلف أبو جعفر الطبري الناشر: دار التراث – بيـــروت الطبعة: الثانية – ١٣٨٧ هـــ ٤ / ٢٤٥ .

حتى إذا ما وصلنا إلي عصر الخليفة الرابع الإمام " علي بن أبي طالب " – كرم الله وجهه – نجده قد أبدع وأكثر في هذا المجال الأدبي أيَّمَا إبداع وإكثار ، فاق به من سبقه من الخلفاء الراشدين ، ومرجع ذلك الأمر إلي ما كان يتمتع به الإمام علي من موهبة أدبية فطرية عالية ، وطبع بياني أصيل ، إضافة إلي ما واجهته في خلافته العديد من الفتن والقلاقل السياسية التي لم تتوقف ولم تنقطع إلا بموت الإمام علي – كرم الله وجهه .

وكان الإمام عليّ بن أبي طالب يستعين علي مواجهة تلك الأزمات والفتن مع جهاده وحزمه بالطيب والهادف من القول البليغ والبيان المعبر ، مما جعله يَتَبوأُ صدارة أدب الخلافة علي مدار عصور الإسلام الزاهرة .

حيث خلّف الإمام " علي بن أبي طالب " – كرم الله وجهه – موروثًا أدبيًا عظيمًا وزاخرًا ، فله في مجال الشعر ديوان شعري كبير ، ينم عن عبقرية شعرية عالية ، وله في جال النثر سفر ضخم وكبير كما سبق ذكره ، يقع في أربعة مجلدات يحتوي علي ما أبدعته قريحة الإمام علي من خطب ورسائل ووصايا وعهود وتوقيعات ومناظرات ، جمعها الشريف الرضي في هذا السفر الذي أسماه بنهج البلاغة . ثم نهض ابن أبي الحديد بشرح هذا النهج والتعليق عليه شرحا وافيا وضافيا ، كشف فيه عن غوامض تلك النصوص النثرية وذكر أحوالها وظروف نشأتها .

وقد حوي هذا السفر الكبير بين دفتيه العديد من فنون وألوان النثر الأدبي الرائق العذب البليغ ، التي برع في إنشائها الإمام علي براعة أدبية وفنية منقطعة النظير .

فجاءت خطب الإمام علي في هذا الكتاب قويةً ورصينةً ، كشف من خلالها عن معالم الدين وقيمه الأخلاقية والدينية الفاضلة ، وتصدي بها للفتن والمؤامرات التي أحاطت بالأمة آنذاك ، وجاءت رسائله إلي العمال والولاة والقادة بليغة ومعبرة وهادفة ، نقلت لهم أسس ومبادئ سياسته الحكيمة العادلة ، وعالج فيها القصور والخلل الذي دبّ في جسد الأمة وأنهكها ، وجاءت عهوده كذلك في غاية الإتقان والبيان ، ورسم من خلالها للمسلمين

أسس ومعالم الحكم الرشيد ، وشغلت الوصايا حيزًا واسعا وكبيرًا في هـذا الكتاب القيم الفريد ، حيث أفرغ في هذا المجال حكمته ومعرفتـه الواعيـة بأمور الدين والدعوة ، وخبرته وحنكته السياسية فـي الخلافـة والحكـم ، وأوصي من حوله من الأقارب والأبناء والقادة والعمال والجند والرعيـة ، فجاءت وصاياه علي درجة عالية من البلاغة والبيان والحكمة والسداد .

ومن جملة وصايا الإمام علي بن أبي طالب وصيته المطولة الفريـدة لابنه الحسن أوصاه بها وكتبها إليه عقب انصرافه من موقعة صفين ، وفي المبحث التالي نتعرض لدراسة دوافع تلك الوصية وعوامل إنشائها .

المبحث الأول :

دوافع وصية الإمام عليّ بن أبي طالب لابنه الحسن

مما لا شك فيه أن هذه الوصية الجامعة الواعية للإمام " علي بن أبي طالب " – كرم الله وجهه – لم تأت عفوية أو اعتباطية أو مصادفة منه ، وإنما كانت لها مثيرات ودوافع أصيلة ومؤثرة ، اعتصرت بنفسية الإمام علي ودفعته إلي تخصيص ابنه الحسن بهذه الوصية البليغة ، خاصة في تلك الظروف العصيبة والأحوال الشائكة التي أحاطت بحياة الإمام عليّ وخلافته، ومن خلال النظر الدقيق لحيثيات الوصية وأجوائها يمكن أن نستخلص عدة دوافع ومثيرات لهذه الوصية منها ما يلي :

– إنَّ أول الدوافع والمثيرات التي ساقت الإمام عليّ إلي تخصيص ابنه الحسن بتلك الوصية الجامعة هو دافع الفطرة الإنسانية السليمة التي فطر الله الآباء عليها ، ألا وهي فطرة حب الأبناء والحرص عليهم ، وإسداء النصح والتوجيه لهم قدر المستطاع ، وقد قال بعض السلف : " أولادنا أكبادنا تمشي علي الأرض " . (١)

وقد صرّح الإمام عليّ – كرم الله وجهه – نفسهُ في بداية وصيته وكشف عن هذا الدافع الفطري الذي دفعه إلي كتابة تلك الوصية ، وذلك في قوله للحسن : " ... ووجدتك بعضي ، بل وجدتك كليّ ، حتي كأن شيئًا لو أصابك أصابني ، وكأن الموت لو أتاك أتاني فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي ، فكتبت إليك مستظهرًا به إن أنا بقيتُ لك أو فنيت ... " (٢) .

وبهذا الدافع تظهر قيمة الأدب النافع وأثره في إصلاح المجتمع وبناءه، وذلك من خلال إعداد جيل من الأبناء متسلحين ومحصنين بالقيم والأخلاق الحميدة التي تدفعهم دفعًا نحو البناء والإصلاح في الكون والحياة .

---

١) التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي المحقق: عبد الفتاح محمد الحلو الناشر: الدار العربية للكتاب الطبعة: الثانية، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م . ١ / ٣١٩ .

٢) نهج البلاغة ٣ / ٣٨ .

– كذلك من العوامل والدوافع التي حثَّت الإمام علي بن أبي طالب أن يفرد ابنه الحسن بتلك الوصية معرفة الإمام علي بمكانة ابنه الحسن في الإسلام ، وشرف نسبه ، وعراقة أصله ، وقرب منزلته ومحبته لدي رسول الله – صلي الله عليه وسلم – ، فهو سبط النبي الكريم ، وابن ابنته فاطمة الزهراء – رضي الله عنها – وريحانة رسول اله من الدنيا ، وسيد شباب أهل الجنة ، فعن ابن عمر – رضي اله عنهما – قال : سمعت رسول الله – صلي الله عليه وسلم – يقول : " إِنَّ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ هُمَا رَيْحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا " (١). وأخرج الترمذي كذلك عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ " (٢) .

كل هذه المزايا والفضائل الدينية التي حباها الله تعالي الإمام الحسن ابن علي بن أبي طالب جديرة بأن تدفعُ الإمام عليّ وتجعله يحرص ويسعي جاهدًا علي توجيه ابنه الحسن وإعداده بهذه الوصية الجامعة المانعة إعدادًا يتناسب مع مكانته ومنزلته الشريفة .

– ومن الدوافع كذلك التي حدت بالإمام عليّ إلي كتابة تلك الوصية لابنه الحسن كِبرُ سنه ، ووهن عظمه ، وتقدم العمر به ، واستشعاره قرب أجله ورحيله عن الدنيا ، مما جعله يشرع في كتابة تلك الوصية ، وتضمينها جُلّ خبراته ومعارفه بأمور الدين والدنيا ، ونراه يشير إلي هذا الدافع من خلال قوله : " ... أي بنيَّ إنِّي لمَّا رأيتني قد بلغتُ سنًّا ، ورأيتني أزدادُ وهنًا ، بادرت بوصيتي إليك ، وأوردت خصالا منها قبل أن يعجل بي أجلي دون أن أفضي إليك بما في نفسي ، وأن أنقص في رأي كما نقصتُ في جسمي ، أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوي وفتن الدنيا ، فتكون كالصعب

---

١) سنن الترمذي لمحمد بن عيسي الترمذي تحقيق أحمد محمد شاكر وإبراهيم عطوة عوض ، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥م . ٥ / ٦٥٧ .

٢) السابق ٥ / ٦٥٦ .

النَّفُور . وإنما قلبُ الحدثِ كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيئ قبلتُه ، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ، ويشتغل لُبّتك لتستقبل بجدٍّ رأيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بغيته وتجربته ، فتكون قد كُفيتَ مؤونة الطلب ، وعوفيت من علاج التجربة ، فأتاك من ذلك ما قد كنا نأتيه ، واستبان لك ما ربما أظلم علينا منه " . ويبين الإمام عليٌّ في تلك الفقرة أن الوصية ضربٌ من الأدب والتربية لأبناء لابد منه ، وأن يحرص عليه الآباء ، ويفرغوا فيه طاقاتهم الفكرية والذهنية من أجل أبنائهم ، وإن لم يكن ذلك الأمر كتابة وإنشاءً فليكن سلوكًا وتوجيهًا ينشأ عليه الأبناء ويتمثلونه ويأخذونه عن آبائهم ، وأكد ذلك أبو العلاء المعري في قوله : (١)

وينشأُ ناشئُ الفتيانِ منا ... على ماكان عَوَّدَهُ أبوهُ

- وثمة دافع آخر خفي تشير إليه وتؤكده أفكار وفقرات الوصية التي لم تخرج عن الإطار الديني والأخلاقي الذي دارت حوله الوصية ، يكمن هذا الدافع في رغبة الإمام " عليّ " في إعداد ابنه الحسن إعدادًا دينيًا وخلقيًا يتناسب مع ما سيسندُ إليه من أمانة وإمامة ، وما يُرتجَى منه في المستقبل القريب من خير ونفع للإسلام ، وإصلاح ووحدة بين جموع المسلمين ، وليس بالضرورة أن يكون هذا الأمل أو الرجاء متعلقًا بمسألة الخلافة وإسنادها إلي ابنه الحسن من بعده ، فإن هذا الأمر علي ما يبدو كان بعيدًا كل البعد عن ذهن وفكر الإمام علي بن أبي طالب ، الذي لم يهنأ يومًا واحدًا منذ أن تولي إمارة المسلمين بعد مقتل سيدنا " عثمان بن عفان " - رضي الله عنه - ، وكابد الصعاب والأهوال في سبيل ذلك الأمر ، وهو من هو مكانة من النبي الكريم - صلي الله عليه وسلم - ومنزلة في الدين ، وشجاعة وعلما وفقها ، مما جعل فكرة إسناد الخلافة من بعده لابنه الحسن أبعد ما تكون عن قلبه وعقله ، وإيمانًا منه بأن هذه الأمر ما كان أن يُورّث

١) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي المؤلف: أحمد قبش بن محمد نجيب . ١ / ١٠ .

لأحد ، وإنما يُترك لجماعة المسلمين ، ولكنه أراد أن يُعدَّ ابنه الحسن إعدادًا آخر يتناسب مع ما تنبأ له به جده المصطفي – صلي الله عليه وسلم – وتوسمه فيه من أمل في الصلاح والإصلاح بين المسلمين ، وذلك في قوله – صلي الله عليه وسلم – في شأن الحسن بن علي : " ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ " .(١)

من أجل ذلك الأمر العظيم والأمل المرجو المتوسم في الحسن سعي الإمام علي بن أبي طالب " جاهدًا نحو إعداد ابنه وتجهيزه دينيًا وخلقيًا لذلك الأمر المرتجي ، وإمداده بتلك الوصية المطولة الجامعة التي تكفيه وتغنيه عن مؤونة الطلب في غيرها إن هو قبلها ونفذ والتزم بما جاء فيها من توجيهات وارشادات نافعة .

١) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة بو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) الناشر: دار الكتب العلمية –بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٠٥ هـ . ٦ / ٤٤٢ .

المبحث الثاني :

محاور وأفكار الوصية

جاءت وصية الإمام " علّي بن أبي طالب " – كـرم الله وجهـه – لابنه الحسن جامعة وواعية لمعظم شئون وأحوال الدين والدنيا معا ، وذكر له فيها ما يتحصلُ به علي خيري الدنيا والآخرة معًا ، وضمّن له فيها مـن التوجيهات والنصائح السديدة والرشيدة ما إن استمسك بها هذا الابن البـار الصالح ونفَّذها لاهتدى وسعد بها في دينه ودنياه .

وقد أشار الإمام علّي نفسه إلي هذا الشمول والعموم الذي اتسمت بـه وصيته وذلك في قوله : " ... يا بني إني قد أنبأتك عن الدنيا وحالها وزوالها وانتقالها ، وأنبأتك عن الآخرة وما أُعدّ لأهلها فيها ، وضربت لـك فيهمـا الأمثال لتعتبر بها وتحذو عليها ..." (١).

وهنا يتجلى العامل الاجتماعي بوضوح في وصية الإمام علي لابنـه الحسن، وذلك من خلال ارتباطه والتحامه بالمجتمع وبالحياة من حوله مـن كافة النواحي والاتجاهات ، الأمر الذي جعله يُصوّر له الدنيا وحالهـا فـي أبدع تصوير وأنصع بيان .

وتبدو العلاقة والآصرة واضحة وقوية بين الوصية المبحوثـة وبـين البيئة الاجتماعية التي نشأ ووُجِد فيها النص الأدبي البليغ ، وهـي علاقـة تحذير وتخويف من ويلات ذلك المجتمع وضراوة أحداثه ، وشدة ابتلاءاتـه وكثرة فتنه ، فمن المعلوم والثابت تاريخيًا أن الإمام " علي بن أبي طالـب " قد قضي مدة خلافته في زمن مليء بالفتن والاضطرابات الفكرية والدينيـة والسياسية التي لم تهدأ ولم تتوقف حدتها وضراوتها .

وقد وعي الإمام علي بن أبي طالب طبيعة تلـك المرحلـة الحرجـة واختلاف الناس فيها عما كانوا عليه من ذي قبل ، وهو يؤكد علـي ذلـك

---

١) نهج البلاغة للشريف الرضي شرح الإمام محمد عبده طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيـروت لبنان ٣ / ٤٥ .

بجوابه لأحد رعيته حينما سأله بقوله : ما بال خلافة أبي بكر وعمر كانت صافية، وخلافتك أنت وعثمان متكدّرة؟ فقال: إن أبا بكر وعمر، كنت أنا وعثمان من أعوانهما، وكنت أنت وأمثالك من أعواني وأعوان عثمان. (١)

فبعد استشهاد أمير المؤمنين " عثمان بن عفان " – رضي الله عنه – انفرط عقد جماعة المسلمين وانحلت عراهم ، وصار الناس شيعًا وأحزابًا وفرقًا متناحرة ومتقاتلة ، فهناك في الشام أنصار معاوية الذين يطالبون بالثأر لدم عثمان وتسليمهم قتلته ، وبالكوفة أنصار الإمام علي وشيعته ، ودارت رحى الحرب بين الطرفين ، وسقط الكثير من المسلمين في كلا الطرفين ، ولم تتوقف الفتنة إلا برفع المصاحف علي أسنة الرماح والالتجاء إلي التحكيم، وهنا انقسم أصحاب الإمام ، وظهر الخوارج علي الساحة السياسية، وازداد المشهد سوءً بعد أن خرجوا علي الإمام عليّ ورفضوا التحكيم ، ونالوا منه وقتلوه .

والشاهد في تلك الأحداث التاريخية المؤسفة والمسطورة بالتفصيل في كتب التاريخ والسير بيان ما حلّ بذلك العصر من فتنٍ وقلاقل ، وما اعتراه من اضطرابات وانقسامات عنيفة وحادة أودت بحياة الكثير من المسلمين آنذاك ، بعد أن أعمت أبصار وقلوب الكثيرين منهم عن الحق ، وعمَّت الفوضى والهرج بين الناس ، حتي صار القاتل لا يدري لم يَقتُل ، ولا المقتول لم قُتلْ !.

كل هذه الظروف والأحداث دفعت الإمام علي بن أبي طالب إلي كتابة تلك الوصية يُحذر فيها ابنه الحسن من الركون إلي مفاتن الدنيا وشهواتها التي أضلّت الناس وأعمت القلوب التي في الصدور .

---

١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب المؤلف: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، حققه: محمود الأرناؤوط خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط الناشر: دار ابن كثير، دمشق – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م / ١ / ٢٢٦ .

ومن هنا تأتي الوصية معبرةً عن روح ذلك العصر وطبيعة تلك المرحلة الحرجة التي عاصرها الإمام علي بن أبي طالب ، وحرص من خلالها أن يُجنب الحسن ويلات تلك الفتن وشرها المستطير .

وبيّن له أن تلك الوصية قد جمعت بين دفتيها من تجارب وخبرات الآخرين الذين قاسوا شدة هذه التجارب وقسوتها ما يغنيه عن طلب معاينة تلك التجارب وتجرّع مرارتها بنفسه ، وذلك في قوله له : " ... فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ، ويشتغل لُبّك ، لتستقبل بجدّ رأيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بغيته وتجربته ، فتكون قد كُفيتَ مؤونة الطلب ، وعُوفيتَ من علاج التجربة ، فأتاك من ذلك ما قد كنا نأتيه ، واستبان لك ما ربما أظلم علينا منه ... " .

وهو في هذا الإطار يلفت نظر ابنه الحسن إلي الكيفية والطريقة التي استطاع بها أن يضمّن وصيته له التجارب والخبرات العديدة التي سوف يضعها بين يديه ، وهي النظر في سير السابقين ، والاعتبار بمصائرهم وأحوالهم وآثارهم السابقة فيقول له :

(...أي بني إنِّي وإن لم أكن عمِّرتُ عمر من كان قبلي فقد نظرتُ في أعمالهم ، وفكرتُ في أخبارهم ، وسرتُ في آثارهم ، حتى عُدتُ كأحدهم. بل كأني بما انتهي إليّ من أمورهم قد عُمِّرتُ مع أولهم إلي آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره ، ونفعه من ضرره ، فاستخلصت لك من كل أمر نخيله ، وتوخيتُ لك جميله ، وصرفت عنك مجهوله ، ورأيت حيث عناني من أمرك ما يعني الوالد الشفيق ، وأجمعتُ عليه من أدبك أن يكون ذلك وأنت مقبل العمر ومقتبل الدهر ، ذو نية سليمة ونفس صافية ، وأن أبتدئك بتعليم كتاب الله وتأويله ، وشرائع الإسلام وأحكامه ، وحلاله وحرامه ، لا أجاوز ذلك إلي غيره ...) .

فيوضح في هذا الجانب المبادئ والأسس العامة التي سوف تُبنَي عليها تلك الوصية وهي اعداد هذا الابن العظيم وتنشئته نشأة دينية صحيحة تقوم علي تعليمه ومدارسته كتاب الله تعالي ومعرفة تأويله وفهمه ، ومعرفة أحكام الدين شرائعه ، والوقوف علي معالم الحلال والحرام في هذا الدين الحنيف .

ومن هنا فإن الخط العام والمحور الرئيس الذي دارت حوله تلك الوصية هو توجيه هذا الابن الشريف وإعداده إعدادًا دينيًا وخلقيًا يتناسب مع عراقة محتده ، وكرامة أصله ، ونسبه الشريف الذي ينحدر به إلي أكرم وأشرف نسب في الوجود وهو نسب نبينا محمد – صلي الله عليه وسلم – فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ – رضي الله عنهما – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ وَحَسَنٌ وَحُسَيْنٌ عَلَى وَرِكَيْهِ: هَذَانِ ابْنَايَ وَابْنَا ابْنَتِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا " .(١)

ونلحظ كذلك أن فقرات وأفكار تلك الوصية تدور من مبتدأها إلي منتهاها حول الحث علي التمسك بالدين ،والاستظلال بمظلته الحامية المنجية من فتن الدنيا وشهواتها ، والاعتصام بحبل الله تعالي وسنة رسوله – صلي الله عليه وسلم – ، والإكثار من ذكر الموت والاستعداد له ، والتحلي بالقيم والفضائل والمحامد ، والعمل الجاد للآخرة والسعي الحثيث لها ولما أُعدَّ فيها من نعيم مقيم .

ومن هنا فقد خلت الوصية تمامًا من أية إشارات أو تلميحات سياسية تتعلق بالخلافة أو الحكم ، علي الرغم من أن صاحبها ومنشئها هو أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، مما يؤكد علي نزاهة خلافة الإمام عليّ وعدالته المطلقة ، وعدم التفكير في إسناد أمر الخلافة مطلقًا أو تبييت النية له لأحد من أولاده من بعده .

---

١) نيل الأوطار محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ) تحقيق: عصام الدين الصبابطي الناشر: دار الحديث، مصر الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م ٦ / ٣٧ .

ولم تتطرق الوصية كذلك إلي الحث علي مكاسب الدنيا ومطامع الحياة وشهواتها الزائلة ، حيث لم يول الإمام علي ابنه الحسن اهتماما بأمور الدنيا إلا ما كان من شأنه أن يصلح له آخرته ويعمرها له كما سنري ذلك في حينه.

وصدّر الإمام علّي وصيته للحسن بالإشارة إلي ذكر المُوصي والمُوصي له في قوله : " ... من الوالد الفان . المقرّ للزمان ، المدبر العمر، المستسلم للدهر ، الذّام للدنيا ، الساكن مساكن الموتي ، والظاعن عنها غدّا ، إلي المولود المؤمّل ما لا يدرك ، السالك من قد هلك ، غرض الأسقام ورهينة الأيام ، ورُمية المصائب ، وعبد الدنيا . وتاجر الغرور ، وغريم المنايا ، وأسير الموت وحليف الهموم . وقرين الأحزان . ونصب الآفات . وصريع الشهوات وخليفة الأموات ... " .

وفي هذا التصدير البارع من الإمام عليّ الذي كنَّي به عن قُرب مفارقته للدنيا وارتحاله عنها ، وحرص علي أن يستشعر به الابن مشاعر الحنان والعطف الأبوي عليه فيقبل علي وصيته ويتفهمها ، ويتمثل ويعي ما بها من نصح وتوجيه .

ثم كشف له بعد هذا التصدير عن الأمر الذي دفع به إلي كتابة هذه الوصية له وذلك من خلال قوله : "... أما بعد فإن فيما تبينتُ من إدبار الدنيا عني وجموح الدهر عليّ وإقبال الآخرة إليّ ما يزعُني عن ذكر من سواي ، والاهتمام بما ورائي ، غير أني حيث تفرد بي دون هموم الناس هم نفسي ، فصدفني رأي وصرفني عن هواي ، وصرح لي محض أمري ، فأفضي بي إلي جدٍ لا يكون فيه لعب ، وصدقٍ لا يشوبه كذب . ووجدتُك بعضي ، بل وجدتك كليّ ، حتي كأن شيئًا لو أصابك أصابني ، وكأن الموت لو أتاك أتاني فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي ، فكتبت إليك مستظهرًا به إن أنا بقيتُ لك أو فنيت .... " .

وفي هذا الاستهلال الطيب رغبة من الوالد الذي يقف علي عتبة دنياه يستشرف آخرته في تحريك وجذب عاطفة ابنه إليه ، والاهتمام والإنصات

لما سيلقي عليه من نصح وتوجيه ، ربما يكون آخر لقاء به وآخر حديث معه ، فيقبل إليه ويعُضُّ عليه بقلبه وفكره ، وهو من أجل ذلك يذكِّره بمكانته ومنزلته منه ، حتي لا يساوره شك في رغبة والده الشفيق وحرصه الشديد علي تحقيق السلامة والنجاة له .

ثم بعد ذلك يتطرق الإمام عليّ إلي مضامين وأفكار الوصية ويستهل تلك الأفكار بحث ابنه الحسن علي التقوى والاعتصام بحبل الله " ... فإني أوصيك بتقوى الله أي بني وعمارة قلبك بذكره ، والاعتصام بحبله ، وأي سبب أوثق بينك وبين الله إن أنت أخذت به ... " .

ونلحظ أنّ الوصية بالتقوى هي أمر طبيعي ومعتاد في جلّ وصايا الآباء لأبنائهم ، ولكن الإمام عليّ تميّز في هذا الجانب ببيان وذكر الأُطُر والوسائل التي يحقق بها الابن التقوى الحقيقية ، وذلك لسعة مفهوم مصطلح التقوي وتعدد مظاهره وصوره ، فيقول له : " ...أحي قلبك بالموعظة ، وأمته بالزِّهادة ، وقوه باليقين ، ونوِّره بالحكمة ، وذلِّله بذكر الموت ، وقرِّره بالفناء ، وبصِّره فجائع الدنيا ، وحذره صولة الدهر وفُحش تقلب الليالي والأيام ... " .

فهذه جملة من التوجيهات الدينية السديدة التي من شأنها أن تعمّر قلب الابن بالتقوي ، وتُزينه بالإيمان ، وترفعه إلي أسمي درجات الصفاء والجمال الإيماني بالله .

ولكثرة فقرات تلك الوصية وتعدد أفكارها يحث الإمام عليّ ابنه الحسن علي ضرورة التدبُّر والتفكر لما حوته الوصية من نصائح وتوجيهات وإن كثرت ، ويذكِّره دائما بربه – سبحانه وتعالي – مالك كل شيئ قائلًا " ... فتفهَّم يا بني وصيتي ، واعلم أن مالك الموت هو مالك الحياة ، وأنَّ الخالق هو المميت ، وأنَّ المفني هو المعيد ، وأنَّ المبتلي هو المعافى ، وأن الدنيا لم تكن لتستقر إلا علي ما جعلها الله عليه من النعماء والابتلاء ، وأن الجزاء في المعاد أو ما شاء مما لا نعلم ... "

ويُكثرُ الإمام علي من استخدام التعبير بـــ (تفهَّم يا بني) و(اعلم يا بني) وذلك تأكيدًا لابنه الحسن علي أهمية أن يعي ويلتزم بما كتبه له فـــي وصيته ، وأن يتدبر كل ما ورد فيها من نصائح وتوجيهات تصلح له دينـــه ودنياه ، وذلك حتى تزيغُ نفس الابن أو تلهه الدنيا ومفاتنها عما خُلق مـــن أجله من حياة الآخرة .

ويحثه كذلك علي أهمية الإقتداء والاهتداء بنبيـــه وجـــده المصـــطفي – صلي الله عليه وسلم – الذي بلَّغ عن ربه بصدق وإحسان " ... واعلم يـــا بني أنَّ أحدًا لم ينبئ عن الله كما أنبأ عنه الرسول صلي الله عليه وسلم – ، فارض به رائدًا ، وإلي النجاة قائدًا ، فإني لم آلك نصيحة ، وإنك لن تبلغ في النظر لنفسك – وإن اجتهدت مبلغ نظري لك ..." .

وفي هذا القول تأكيدٌ علي صدق محبة الإمام علي للنبـــي صـــلي الله عليه وسلم وصدق الإيمان والاقتداء به ، وفي ذلك ردٌ علي مزاعم وأباطيل غلاة الشيعة الذين غالوا في محبة الإمام عليّ وفي الاقتداء به ، وما من شكٍ في فساد عقيدتهم وهلاكهم ، وقد أشار النبي صلي الله عليه وسلم إلي هـــذا المسلك الباطل الذي سوف يسلكه أتباع وأعداء الإمام علي وذلك في قولـــه صلي الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب : " " يهلك فيك رجـــلان: محـــبٌ مفرط، وكذابٌ مفترٍ " [1] .

ثم يتطرق الإمام عليّ بن أبي طالب في وصيته إلي قضية التوحيـــد مستعيناً في ترسيخ ذلك الأمر في نفس ابنه الحسن بذكر الدليل العقلي الذي يدحض آراء المنكرين للتوحيد " ... واعلم يا بنيّ أنه لو كان لربك شـــريك في الملك لأتتك رسله ، ولرأيت آثار ملكـــه وســـلطانه ، ولعرفـــت أفعالـــه وصفاته ، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه ، لا يضاده فـــي ملكـــه أحـــدٌ ،

١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البـــر بـــن عاصم النمري القرطبي . المحقق: علي محمد البجاوي الناشر: دار الجيل، بيـــروت الطبعـــة: الأولى، سنة ١٤١٢ هـــ - ١٩٩٢ م . ١١٠١/٣

ولا يزول أبدًا ، ولم يزل أولَ قبل الأشياء بلا أولية ، وآخر بعد الأشياء بلا نهاية . عظُمَ أن تثبُت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر .... " .

وتكشف لنا هذه الفقرة عن مقدرة الإمام عليّ بن أبي طالب البالغة علي المناظرة القوية الجيدة ، والجدال الواعي المستنير ، المدعوم بالعقل والمنطق والحجة القاطعة ، فنراه يستخدم الأسلوب العقلي المقنع في إثبات وحدانية الله تعالي ونفي المشاركة معه .

والإمام علي بن أبي طالب في وصيته للحسن يكثِّف له فيها من صور التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا والركون إليها والافتتان بها ، والحثُّ علي الآخرة والسعي لها ، فنراه تارة يعرض عليه ذلك الأمر في صورة تقريرية مباشرة كقوله له : " .... واعلم أنك خُلقت للآخرة لا للدنيا ، وللفناء لا للبقاء ، وللموت لا للحياة ، وأنك في منزلٍ قُلعةٍ ، ودارِ بُلغَةٍ ، وطريقٍ إلي الآخرة ، وأنك طريد الموت الذي لا ينجو منه هاربه ، ولابد مدركه ، فكن منه علي حذر أن يدركك وأنت علي حال سيئة قد كنت تحدثُ نفسك منها بالتوبة فيحولُ بينك وبين ذلك ، فإذا أنت قد أهلكت نفسك ... " .

وتارة أخي يعرضه في صورة تمثيلية بيانية معبرة كقوله له : " ... إنما مثل من خبَرَ الدنيا كمثل قومٍ سَفْرٍ نبا بهم منزلٌ جديب فأمّوا منزلاً خصيبًا وجنابًا مريعًا ، فاحتملوا وعثاء الطريق ، وفراق الصديق ، وخشونة السفر ، وجشوبة المطعم ليأتوا سعة دارهم ومنزل قرارهم ، فليس يجدون لشيء من ذلك ألمًا ، ولا يرون نفقةً مغرمًا ، ولا شيئ أحبَّ إليهم مما قربهم من منزلهم ، وأدناهم من محلهم ، ومثلُ من اعترَّ بها كمثل قومٍ كانوا بمنزل خصيب فنبا بهم إلي منزل جديب ، فليس شيئ أكره إليهم ولا أفظع عندهم من مفارقة ما كانوا فيه إلي ما يهجمون عليه ويصيرون إليه ... " .

مما يدلّ ذلك ويؤكد علي مدي زُهد الإمام عليّ في الدنيا وعُزوفه عنها وعن متاعها ،

علي الرغم من سلطته وخلافته إلا أنّض ذلك الأمر لم ينل منه ولا من نفسه شيئًا .

ونراه يؤكد علي هذا الأمر لابنه الحسن مرة أخري فيحثُّــه علـــي أن يتزوَّد للآخرة ، ويسعي لها، ويخفِّف ظهرَهُ من حمل المظالم والأمانـــات " ... واعلم أن أمامك طريقًا ذا مسافة بعيدة ومشقة شديدة ، لا غني لك فيـــه عن حُسنِ الارتياد . قدِّر بلاغك من الزاد مع خفَّة الظهر ، فلا تحمِلنَّ علي ظهرك فوق طاقتك فيكون ثقل ذلك وبالًا عليك . وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك إلي يوم القيامة فيوافيك به غدًا حيث تحتاج إليه فاغتنمه وحمله إياه . وأكثر من تزويده وأنت قادر عليه فلعلك تطلبه فـــلا تجـــده . واعلم أنَّ أمامك عقَبَة كؤُودًا ، المُخِفُّ فيها أحسنُ حالًا من المثقل ، والمبطئ عليها أقبح حالا من المسرع ، وأنَّ مهبطك بها لا محالة علي جنة أو نار . فارتد لنفسك قبل نزولك ، ووطئ المنزل قبل حُلُولك ، فليس بعـــد المـــوت مستعتب ، ولا إلي الدنيا منصرف .... " .

ويكثِّف الإمام علي بن أبي طالب في وصيته للحسن من صور تذكيره وتصويره مشاهد ومواقف الآخرة ، مما يؤكد أن تلك الوصية قـــد اهتمـــت بآخرته أكثر من دنياه ، فيـــذكره بـــأول عتبـــات الآخـــرة وهـــي المـــوت قائلا : " .... يا بني أكثِر من ذكر الموت وذكر ما تهجم عليه وتُفضي بعد الموت إليه حتى يأتيك وقد أخذت منه حذرك ، وشددت له أزرك ، ولا يأتيك بغتَةً فيُبهرُك . وإيَّاك أن تغترَّ بما تري من إخلاد أهل الدنيا إليها ، وتكالبهم عليها .... "

ويذكِّره كذلك بأنه ما خُلِق إلاَّ للموت وللآخرة قائلًا له " ... واعلـــم أنك خُلقت للآخرة لا للدنيا ، وللفناء لا للبقاء ، وللموت لا للحياة ، وأنك في منزلِ قُلعةٍ ، ودارِ بُلغَةٍ ، وطريقٍ إلي الآخرة ، وأنك طريد المـــوت الـــذي لا ينجو منه هاربه ، ولابد مدركه ، فكن منه علي حذر أن يـــدركك وأنـــت علي حال سيئة قد كنت تحدثُ نفسك منها بالتوبة فيحولُ بينك وبين ذلـــك ، فإذا أنت قد أهلكت نفسك ... " .

ويبين له أنّ الموت سيكشف للناس غفلتهم وجهلهم عن حقيقة الدنيا " ...رُويدًا يسفرُ الظلامُ . كأنْ قد وردَتِ الأظعانُ . يوشك منْ أسرعَ أنْ يلحَق

. واعلم أنّ من كانت مَطيَّته الليل والنهار فإنه يسارُ به وإن كان واقفًا ، ويقطعُ المسافة وإن كان مقيمًا وادعًا ..." .

ولا يخفي علينا ما تحمله تلك التوجيهات والتنبيهات للابن من تحذيرٍ من الدنيا ومفاتنها ، واستعدادٍ للموت ومفاجعه ، وعملٍ للآخرة ومواقفها .

ولم يغفلِ الإمام عليٌّ في وصيته التي أكثر فيها للحسن من ذكر الموت ومواقف الآخرة أن يلفت نظره إلي دنياه التي فيها معاشه ومحياه ، فيحثُّه علي السعي والكسب الطيب الحلال في الدنيا ، وهو في سبيل ذلك يوصيه بالترفق والتجمُّل في طلب المعالي والمكاسب بكرمٍ وإبَاء ، وأن ينأ بنفسه عن سُبل الدنَايَا والتذلُّلِ لمخلوق " ...واعلم يقينًا أنَّك لن تبلُغَ أملَك ولن تعدُو أجلَك ، وأنك في سبيل من كان قبلَكَ ، فخفِّض في الطلب ، وأجمِل في المُكتَسَب فإنه رُبَّ طلبٍ قد جَرَّ إلي حَرَبٍ ، فليس كلُّ طالبٍ بمرزوق ، ولا كلُّ مُجمِلٍ بمحروم ، وأكرم نفسك عن كلِ دنيَّةٍ ، وإن ساقتك إلي الرغائب فإنك لن تَعْتَاضَ بما تبذُل من نفسك عوضًا ، ولا تكن عبد غيركَ وقد جعلك الله حرٌّ . وما خيرُ لا يُنالُ إلا بشرٍ ، ويُسرٍ لا يُنالُ إلا بعُسرٍ ...".

والإمام " عليّ بن أبي طالب " وهو الوالد الحكيم ، البصير والعليم بطبيعة النفس البشرية وميلها إلي الذنوب والمعاصي وقت غفلتها وضعفها يحرص في وصيته أن يذّكِّر ابنه الحسنَ بسعةِ رحمة الله تعالي ، وعظيم عفوه وكرمه في إجابة دعوته وقبول توبته ، ويحذره من اليأس والقنوطِ من رحمة الله " .... واعلم أنَّ الذي بيده خزائن السموات والأرض قد أذن ك في الدعاء وتكفَّل لك بالإجابة ، وأمرك أن تسأله ليعطيك وتسترحمه ليرحمك ، ولم يجعل بينك وبينه من يحجُبُه عنك ، ولم يُلجئكَ إلي من يشفعُ لك إليه ، ولم يمنعك إن أسأتَ من التوبة ، ولم يعاجلكَ بالنقمة ، ولمْ يُحيركَ بالإنابة ، ولم يفضَحك حيثُ الفضيحَة بك أولي ، ولم يُشَدّد عليك في قبول الإنابة ، ولم يناقشك بالجريمة ، ولم يُؤيسكَ من الرحمة . بل جعلَ نُزُوعك عن الذنب حسنة ، وحسَبَ سيئتك واحدة ، وحسب حسنتك عشرًا ، وفتح لك باب المتاب . فإذا ناديته سمع نداءك ، وإذا ناجيته علم نجواك ، فأفضيت إليه

بحاجتك ، وأبثثته ذات نفسك ، وشكوت إليه همومك ، واستكشفته كروبك ، واستعنته علي أمورك ، وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدرُ علي إعطائه غيرهُ من زيادة الأعمار وصحة الأبدان وسعة الأرزاق ... " .

ويضعُ الإمام عليّ بن أبي طالب وهو رجلُ التجارب والمواقف الاجتماعية المتعددة ، والخبير بطبائع الرجال وأحوالهم ، يضع بين يدي ابنه الحسن فلسفةً حكيمةً ورشيدةً في التعامل مع الصديق من أجل الاستبقاء عليه والتمسك بمودته وصداقته قائلًا : " ... وإيَّاك أن تجمحَ بك مَطيَّة اللجَاجِ . احمل نفسك من أخيك عند صَرْمِه علي الصِّلة . وعند صُدُودِه علي اللُطفِ والمقاربة ، وعند جُمُودِهِ علي البَذْلِ ، وعند تَبَاعُدِهِ علي الدُنُوِّ ، وعند شِدَّتِهِ علي اللِّين ، وعند جُرمهِ علي العُذرِ حتي كأنك له عبدٌ وكأنهُ ذو نعمةٍ عليك . وإيَّاك أن تضع ذلك في غير موضعه أو أن تفعله بغيرِ أهله ، لا تتخذنَّ عدوَّ صديقك صديقًا فتُعادي صديقك ..." .

ونراه في تلك الفلسفة الاجتماعية التي عرضها علي ابنه يُطبقُ منهج القرآن الكريم في هذا الجانب وذلك من خلال قوله تعالي : " ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميد " (١) .

ويكشف كذلك في هذا الجانب عن المعاملة الحسني والطريقة المثلي مع الناس كافة ومع الأقربين والأصدقاء وذي الأرحام علي وجه الخصوص، وذلك من حيث الترفع عن صغائر الأفعال والمعاملات ، ونِدِّية المواقف والتصرفات ، فلا يقابل القطيعة بقطيعة ، ولا الجفاء بجفاء ، ولا الشدة بشدة، ولا الصدّ بصدٍ وإعراض ، بل يعفو ويصفح ، ويدنو ويشفع ، ويعطي ولا يمنع ، وهذا ما أكد عليه الإسلام وحث عليه انبي – صلي اه عليه وسلم

١) الآية ٣٤ سورة فصلت .

في قوله : " لَيْسَ الوَاصِلُ بِالمُكَافِئِ، وَلَكِنَّ الوَاصِلَ الَّذِي إِذَا انْقَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا " .(١)

ثم يوصيه كذلك بإخوانِهِ وأهلِهِ خيرًا ، بأن يبذُلَ لهم النصيحَة ، ويتجرَّعُ غيظَ إغضَابِهمُ له ، ويحذرهُ من الجورِ أو الطمع في حق أخيه بحُجَّة المودة والقرابة " ...وامحَض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة . وتجرّع الغيظ فإني لمْ أر جُرعَةً أحلي منها عاقبة ولا ألذَّ مغبَةً . ولِنْ لمن غالظَك فإنه يوشكُ أن يلينَ لك . وخُذ علي عدوِّكَ بالفضل فإنه أحلي الظفرين ، وإنَّ أردتَ قطيعة أخيكَ فاستبق له من نفسكَ بقيةً ترجعُ إليها إن بدا له ذلك يومًا ما . ولا تُضَيعَنَّ حقّ أخيك اتِّكالًا علي ما بينك وبينه ، فإنه ليس بأخٍ من أضعتَ حقَّه . ولا يكن أهلكَ أشقي الخلق بك . ولا ترغبنَّ فيمن زهدَ فيك . ولا يكُونَنَّ أخُوك أقوي علي قطيعتك منك علي صلتِهِ ، ولا تكوننَّ علي الإساءة أقوي منك علي الإحسان ، ولا يكبُرنَّ عليك ظُلمُ من ظلمك فإنه يسعي في مضرته ونفعك ...." .

ويسُوق الإمام عليّ في وصيته للحسن جملة من الحكم والأمثال الدالة والمعبرة ، والتي تحثّه علي فعل الخيرات وتجنُّب المنكرات ..." أخِّر الشرَّ فإنك إذا شئت تعجلته ، وقطيعة الجاهل تعدلُ صِلّة العاقل . من أمِنَ الزمانَ خانه ، ومن أعظَمَهُ أهانه . ليس كل من رمَي أصَاب . إذا تغيّر السلطان تغيّر الزمان . سَلْ عن الرفيق قبل الطريق . وعن الجار قبل الدار ...." .

فكما نري في تلك الحكم من النصح والتوجيه النافع من الحثِّ علي ترك الشر ومجانبته ، وتجنُّب مصاحبة الجاهل ، وعدم أمن الزمان ، والدقة في تحديد الهدف واصابته ، والحذر من السلطان الجائر ، والتحرِّي الدقيق في اختيار الصديق والجار ، وذلك لم للحكمة والمثل من تأثير بالغٍ وسريع في نفس المتلقي واقناعه بالأمر .

---

١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت . ٦ / ٣٠ .

ولمّا كان الحسن بن علي رجلًا كثير النكاح والتـزوّج مـن النسـاء وسرعة تطليقهن ومفارقتهن الأمر الذي أثار غضب والده الإمام علي وجعله يحذّر الناس من تزويجه بناتهن كان من الضروري أن يلفت الإمام علي نظر ابنه الحسن إلي خطورة هذا الأمر ، فنراه يحذّره من مشاورة النساء ومنعهنّ من الاختلاط بالآخرين حفاظًا عليهن قائلًا له ... " وإيّاك ومشاورة النسـاء فإن رأيهنّ إلي أفنٍ ، وعزمهُنّ إلي وَهْن . واكفُف عليهن مـن أبصـارهنّ بحِجَابِك إيّاهن فإن شدّة الحجاب أبقَي عليهن ، وليس خروجَهن بأشـد مـن إدخالك من لا يُوثق به عليهن ، فإن استطعت ألا يعرفنّ غيـرك فافعـل . ولا تُمَلِك المرأة من أمرها ما جاوَزَ نفسها ، فإن المـرأة ريحَانَـةٌ وليسـت بقَهرَمَانَةٍ، ولا تَعدُ بكرَامَتِها نفسها، ولا تُطمِعهَا في أن تشفَع بغيرها ...." .

ومن خلال النظر العميق في طبيعة ذلك العصر وأحداثه التاريخيـة الدامية الذي كتبت فيه تلك الوصية نلتمس العذر لتحذير الإمام علـي ابنـه الحسن من مشاورة النساء ، وذلك راجع إلي طبيعة المرأة الرقيقة وضعفها ، تلك الطبيعة والفطرة التي خلقها الله عليها تتنافي مع ضراوة الأحداث وشدة الفتن التي ظهرت في ذلك العصر .

فهذه جملة من الأخلاق والشمائل في التعامل مع المـرأة والمحافظـة عليها من الفتن والأهواء بدأها بتحذيره من مشاورة النساء ، وربُما يكـون ذلك التحذير من مشاورة النساء من الإمام علي للحسن دافعه كثرة نساء ابنه الحسن واختلاف طباعهنّ وآرائهن ، مما قـد يوقِعـهُ ذلـك فـي الهـلاك والخُسران، وليس ذلك لرأي المرأة في ذاتها ، فلربما تفوقُ مشـورة امـرأة كثيرا من الرجال .

ومن تلك الأخلاق كذلك مع النساء منعهّن من السُـفُور والتبـرُّج ، وإسدال الحجاب المادي والمعنوي عليهن ، ومنـع دخـول الغربـاء وذوي المطامع عليهن ، غَيرةً وحفاظًا عليهن ، ومنع تصرُّف المرأة في الأمـور الخارجية التي ليست من اختصاصها ولا تتناسب مع طبيعتها مـن الرقـة

والضعف ، والنهي عن إطلاق زمام الكرامة لهنّ والمبالغة في ذلك حتى لا تطمعُ أخري في نيل الشفاعة بكرامتها .

وإن كان الإمام عليّ قد أوصي الحسن بالغَيرة علي نسائه فإنه يحذره من المبالغة في تلك الغيرة أو تفعيلها في غير موضعها مما قد يأتي بنتيجة سلبية ومختلفة وغير مُرضية ..." وإيّاك والتغاير في غير موضع غَيرة ، فإن ذلك يدعُو الصحيحة إلي السقم ، والبريئة إلي الريب ..." .

فهو هنا يحثُه علي التوسط في مراعاة ذلك الأمر ، فلا يتراخى ولا يتشدّد معهنّ في فيه ، ونراه قد كنّي بالصحيحة عن البريئة من الخيانة والفساد الأخلاقي وبالسقيمة عن سيئة السمعة والأخلاق ،وفي ذلك من التهويل والتنفير من قبح ذلك الأمر واستهجانه .

ويحثّه كذلك علي أهمية التكليف والتنظيم في إسناد الأعمال إلي من يتولى أمرهم من الخدم والموالي " .... واجعل لكل إنسان من خدمِكَ عملا تأخذه به فإنه احري أن لا يتواكلوا في خدمتك ..." .

ولا يخفي ما في ذلك من إدارة حكيمة وقيادة واعية كان يتمتع بها الإمام عليّ في شئون خلافته وحياته وأراد أن يعلمها للحسن حتى تستقيم له شئون رعيته من أهله وخاصته .

ويختتم الإمام علي بن أبي طالب وصيته لابنه الحسن بمعاودة التكرار والتأكيد علي إكرام أهله وعشيرته والإحسان إليهم " ... وأكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير، وأصلك الذي إليه تصير ، ويَدُك التي بها تصُول . أستودعك الله دينك ودنياك ، وأسأله خير القضاء لك في العاجلة والآجلة والدنيا والآخرة . والسلام " .

مستخدمًا في التأكيد علي ذلك الأمر أسلوب الاستعارة المكنية حيثُ صوّر الأهل بالطائر واستعاض عنه بذكر الجناح له .

وفي الحثِّ علي ذلك الأمر فضلًا علي أنّ فيه حرص من الإمام عليّ علي ابنه الحسن وعلي عشيرته نلحظ فيه أيضًا حرصًا واهتمامًا بالغًا من الإمام عليّ في إكرام وتشريف آل بيت رسول الله – صلي الله عليه وسلم –

الذين هم من الإمام علي وذريته ، فقد ورد أنه لما نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ : {فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ} دَعَا رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَقَالَ : اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي " (١) وجاء أيضًا أنّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : «عَلِيٌّ مِنِّي وَأَنَا مِنْ عَلِيٍّ، وَلَا يُؤَدِّي عَنِّي إِلَّا أَنَا أَوْ عَلِيٌّ " (٢) .

وهكذا تبدو لنا تلك الوصية الجامعة وقد حوت من التوجيهات والنصائح السديدة النافعة التي وجهها الإمام علي لابنه الحسن في غاية النفع والصلاح والفلاح للحال والأمر في الدين والدنيا والآخرة .

وقد جاءت تلك المحاور والأفكار في الوصية في إطار أسلوبي وفني بليغ وأخّاذ ، دلّ علي شخصية الإمام عليّ بن أبي طالب الأدبية والفنية العالية ، وهذا ما يتبين لنا في المبحث التالي :

١) المسند الصحيح بو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري الناشر : دار الجيل بيروت ، المطبعة التركية سنة ١٣٣٤ هـ ٧ / ١٢٠ .

٢) سنن الترمذي ٦ / ٩٦ .

المبحث الثالث

السمات والخصائص الأسلوبية والفنية في الوصية

يتسم أدب الإمام عليّ بن أبي طالب عامة بصفة البلاغة الأدبية العالية، والبيان الفني الرصين ، فقد كان رضي الله عنه من الخلفاء الأدباء ، الذين جمعوا مع الخلافة والحكم فصاحة اللسان وذرابة البيان .

وتمتع – رضي الله عنه – بموهبة أدبية وفنية عالية ، تعذرت أن توجد عند غيره من الخلفاء في عصره أو فيمن تبعه في عصور الإسلام المجيدة .

فلا غرو بعد ذلك أن تأتي فنون الأدب وضروب القول لديه في أسمي وأرقي درجات البلاغة والبيان العربي الأصيل .

وبنظرة عامة إلي وصية الإمام علي بن أبي طاب إلي ابنه الحسن محل الدراسة والبحث نجد أنها قد احتوت علي معظم فنون وأساليب البيان الأدبي الرفيع ، وجاءت في غاية الإحكام الأدبي والأسلوبي البديع ، واكتست بحُللِ الجمال الفني الخلاَّب ، مما جعلها دُرَّةً من درر النثر الأدبي والإنساني الخالص .

ومن خلال النظر الفني إلي تلك الوصية البديعة نلحظ أنها ترتكز علي عدة سمات وخصائص أسلوبية وفنية نرصد منها ما يلي :

– اتسمت وصية الإمام عليّ بالإطناب والتطويل ، وهي سمة عامة وشائعة في أدب الإمام علي كافة ، فقد كان – رضي الله عنه – " صاحب القِدح المُعلَّي في طُوال الخطب والرسائل " (١) .

وكانت قدرته – كرم الله وجهه – في إنشاء الخطب والرسائل الطوال قدرة لا تُباري ، وقد بلغ حدَّ من قدرة الإقناع والتأثير والاستمالة لم يبلغه أحد " (٢) .

---

١) أدب الخلفاء الراشدين ص ٤٥٩ .

٢) أدب الخلفاء الراشدين ص ٤٩٠ .

ويتميز الإمام علي في تطويله وإطنابه بما يمكن تسميته " إطناب التعليل " أو " إطناب الحيثية " فهو يسوق الحكم أو يوجه الأمر أو النهي ، ثم يعقُبهُ بتعليله أو تبريره ، بحيث يأتي الحكم مصحوبًا بحيثيته ، وهو ما نلحظه كثيرًا في فقرات وعبارات الوصية بوضوح وجلاء ، وسوف يتبين لنا ذلك في العنصر التالي .

-زاوَجَ الإمام علي بن أبي طالب في وصيته بين الفقرات القصيرة الموجزة وبين الجمل الطويلة المطنبة ،وذلك حسب طبيعة المعني المراد ، فقصُرت الجمل حين ناسب ذلك القصر المعني المقصود ، وفي غالب هذه الجمل القصيرة تخدم جميعها فكرة عامة مجملة ، من ذلك قوله للحسن " ...أحي قلبك بالموعظة ، وأمته بالزهادة ، وقوه باليقين ، ونوره بالحكمة ، وذلله بذكر الموت ، وقرره بالفناء وبصره فجائع الدنيا ..."

وتارة يميل في الجمل إلي البسط والطول وذلك حينما يريد التعليل أو التأكيد علي أمر ما ، ومن ذلك قوله " ... فلا تحملّنَّ علي ظهرك فوق طاقتك فيكون ثقل ذلك وبَالًا عليك ، وإذا وجدَتَ من أهلِ الفَاقة من يحملُ لك زادَكَ إلي يوم القيامة فيُوافِيكَ به غدًا حيث تحتاج إليه فاغتنمهُ وحمِّلهُ إياه ..." .

فالاسترسال هنا ضرورة اقتضاها المقام والحال ، وهو في كلٍ يحتفظ لعباراته مع رصانتها بأسلوبها الموجز ، وجريانها علي قانون الوضع اللغوي ، فلم نر استعمالا لضمائر الجمع في كلام المتكلم أو خطاب الواحد مثلًا ، ما يؤكد ذلك علي حرص الإمام علي أن تأتي وصيته في أرقي درجات البيان والأداء اللغوي السليم .

-غلب علي شكل الوصية كثرة التعبير بالأساليب الإنشائية من الأمر والنهي والنداء والتحذير والإغراء ، وقلّت فيها الأساليب الخبرية نوعًا ما ، وهذا أمر طبيعي ومقبول في فن الوصية ، إذ تعدُ الوصية نقلًا لخبرات ذوي التجارب والخبرات إلي من يحرص عليهم أو يهمه أمرهم ، فتتخذُ من النصح والتوجيه المباشر طابعًا لها ، والنصح إما بشيء فيه مصلحة أو نهي

عن أمر فيه مضرَّة ، فالترغيب طابع الأمر الأول والتحذير مهمة الثـــاني ، ومن هنا فلا غرابة أو غضاضة من الاكثار من التعبير بالأساليب الإنشائية في وصية الإمام علي .

من هذه الأوامر قوله " ... أحي قلبك بالموعظة ، وأمته بالزهـــادة ، وقوه باليقين ، ونوره بالحكمة ، وذَلله بذكر الموت ، وقرِّره بالفناء ، وبصِّره فجائه الدنيا ، وحذِّره صولة الدهر وفحش تقلب الليالي والأيام ، وأعـــرض عليه أخبار الماضين ، وذكره بما أصاب من كان قبلك مـــن الأولـــين ...." وقوله له " ...وإياك أن تُوجف بـــك مطايـــا الطمـــع ، فتـــوردك مناهـــل الهلكة ... وإياك واتكالك علي المُني فإنها بضائع الموتى ... " .

ومع كثرة تلك الأوامر والنواهي والتحذيرات في وصية الإمام علـــي للحسن كثرة بالغة حرص الإمام علي أن يُخفف من وطـــأة تلـــك الأوامـــر والنواهي علي نفس ابنه الحسن التي ربما تنفرُ وتَتَضَجَّرُ منها فشفَّعها ببعض الصور والوسائل التعبيرية الأخرى التي تخللـــت الوصـــية مثـــل التعبيـــر بالنداءات المتكررة بلفظ " يا بنيّ " بما يوحي هذا النداء الرقيق العذب مـــن الشفقة والحرص ، وبما يَشعرُ فيه الابن بالود والمحبة من أبيه ، وذلك حتى تجد الوصية مدخلًا إلي نفسه وقرارة في فؤاده ، مثل قوله له " واعلم يا بُنَيَّ أنَّ أحب ما أنت آخذ به إلي من وصيتي تقوي الله والاقتصار علي ما فرضه الله عليك والأخذ بما مضي عليه الأولون من آبائك والصالحون مـــن أهـــل بيتك ... يا بني إني قد أنبأتك عن الدنيا وحالها وزوالها وانتقالها ، وأنبأتـــك عن الآخرة وما أُعد لأهلها فيها ....."

ونراه يُعللُ لتحذيراته المتكررة في الوصية ولا يخفي ما فـــي ذلـــك التعليل للنفس من مزيد الاقتناع والامتثال والاقبـــال علـــي الالتـــزام بتلـــك التحذيرات وقبولها من الموصي ، نلحظ ذلك التعليل فـــي قولـــه " وإيـــاك ومشاورة النساء فإنَّ رأيهنَّ إلي أفنٍ وعزمهُنَّ إلي وهْنٍ ... وإيَّاك والتغـــاير في غير موضع غيرةٍ فإن ذلك يدعو الصحيحة إلي الســـقم والبريئـــة إلـــي الرَّيب ... ، وإيَّاك أن توجفَ بك مطايا الطمع فتوردك مناهل الهلكة " .

-ولم يغفل الإمام علي في وصيته التي أكثر فيها من الأوامر والنواهي أن يُشفِّع تلك الأوامر والنواهي بالتعليل تارة والتدليل تارة أخري ، ذلك لأن ذكر العلة يريح النفس ، ويجعلها أدعي للقبول والاستدلال يُعمق تأثيرها ويجعلها أكثر فاعلية في نفس المتلقي ، من ذلك قوله " ... وأكرم عشيرتك فإنهم جناك الذي به تطير ، وأصلك الذي إليه تصير ، ويدك التي بها تصول .... ولا تُضيعنَّ حق أخيك اتكالا علي ما بينك وبينه فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقه ، ولا يكونن أهلك أشقي الخلق بك .... ولا تكوننَّ ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت في إيلامه ، فإنّ العاقل يتعظ بالآداب ، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب ....." .

- ظهرت في الوصية بعض الأساليب والتعبيرات المتأثرة بأساليب وتعبيرات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهَّرة ، وهو ما يعرف أسلوبيًا بالتنَاص ، وهذا أمر طبيعي في شخصية الإمام عليّ بن أبي طالب وهو من أوائل السابقين إلي الإيمان ، واستقي علمه وأدبه من رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فلا غرو بعد ذلك أن تظهر بصمات القرآن والسنة النبوية الشريفة في أدبه وكلامه الشريف .

ومن ذلك قوله " يا بُنَيَّ اجعل من نفسك ميزانًا فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم ..." فنراه في تلك الفقرة متأثرًا بقول النبي - صلي الله عليه وسلم - : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " [1] . وقوله كذلك " واعلم أنَّ أمامك عقبة كؤودًا " فنراه متأثرًا في هذا التعبير بقول النبي - صلي الله عليه وسلم - " وخفِّف ظهرك فإنَّ العقبة كؤود " .

١) الجامع الصحيح سنن الترمذي المؤلف : محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون ٤ | ٦٦٧ .

وفي قوله " ... رويدًا يسفر الظلام ..." تأثر بقول الله تعالي : " والصبح إذا أسفر " (١) .

-استعان الإمام علي بن أبي طالب في وصيته بإيراد بعض الأدلة العقلية والمنطقية ، وذلك للتأكيد والتدليل علي ما يوصي به ابنه الحسن ومن ذلك قوله له مؤكدًا علي وحدانية الله تعالي " ...واعلم يا بُنَيَّ أنه لو كان لربك شريكٌ لأتتك رسله ، ولرأيت آثار ملكه وسُلطانه ، ولعرفت أفعاله وصفاته ، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه ...." . وهو تدليل عقلي ومنطقي سليم ، اتسم به الإمام علي بن أبي طالب في مناظراته ومحاوراته الفكرية والدينية السديدة ، حيث كان لا يجدُ الخصمُ إزائها سوي الإيمان والتسليم لرأي الإمام عليّ ، أو الصد والإعراض عنه كفرًا وجحودًا .

-غلب علي أساليب الوصية كثرة الاعتماد علي السجع والازدواج بين الجمل والفقرات ، حيث كان الإمام عليّ – كرم الله وجهه- أحفلُ الخلفاء بالسجع في كتبه وحكمه ومواعظه ، وتعد هذه السمة عنده من جوامع الكلم في أدبه " (٢) .

ومع كثرة ورود السجع في وصية الإمام علي هذه لابنه الحسن من أولها حتى آخرها إلا أن هذا السجع جاء مطبوعًا غير متكلف ، وأسهم في وضوح المعاني والأفكار التي دارت حولها الوصية والتأكيد عليها وتعلقها بالذهن . ومن صور السجع في وصيته قوله " من الوالد الفان . المقر للزمان . المدبر العمر . المستسلم للدهر ....، وقوله "... واعلم أن أمامك طريقًا ذا مسافة بعيدة ، ومشقةٍ شديدة .... ، وقوله "....واعلم يقينًا أنك لن تبلغ أملك ولن تعدو أجلك ، وأنك في سبيل من كان قبلك ، فخفِّض في الطلب ، وأجمل في المكتسب ، فإنه رُبَّ طلبٍ قد جرَّ إلي حرب .... ، وقوله "....واعلم يا بني أنّ أحدًا لم يُنبئ عن الله كما أنبأ عنه الرسول –

١) الآية ٣٤ سورة المدثر .

٢) أدب الخلفاء الراشدين ص ٤٦٨ .

صلي الله عليه وآله ، فارض به رائدًا . وإلي النجاة قائدًا .... ، وقوله " ...وأكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير ، وأصلك الذي إليه تصير .... " .

وزيادة علي هذا السجع تحفل الوصية كذلك بصور الازدواج المتعددة من ذلك قوله " فليس كلٌّ طالبٍ بمرزوق ، ولا كلٌّ مُجملٍ بمحروم ... ،وقوله "... واعلم أنَّ مالك الموت هو مالك الحياة ، وأنَّ الخالق هو المميت ، وأنَّ المُفْني هو المعيدُ ، وأنَّ المُبْتَلي هو المعافي ....، وقوله " ...قارن أهل الخير تكن منهم ، وباين أهل الشر تبِن عنهم ....، وقوله " ...إذا كان الرفقُ خُرقًا . كان الخُرقُ رفقًا ....، وقوله " ...لا خير في مُعينٍ مَهين . ولا في صديقٍ ظنين ..." . وما لا شك فيه أن في تلك الفقرات والعبرات التي تخللها السجع أو الازدواج كان لها أثرها الطيب والفاعل في التأثير في نفس الابن ، وذلك من خلال تلك السجعات والفقرات الموسيقية الخلابة التي تقرب المعني وتحببه في نفس المتلقي .

-ومن ظواهر وصور البديع كذلك في تلك الوصية كثرة إيراد أسلوب التضاد والطباق والصور المتقابلة ، ولا يخفي ما في التقابل والتضاد من تأثير بالغ في المعاني وتوضيحها في نفس المتلقي ، ففي وضع النقيض إلي نقيضه يزيدهما كليهما وضوحًا وجلاء ، وذلك علي حد قول القائل " وبضدها تتميز الأشياء " ومن صور الطباق والتضاد في وصية الإمام عليّ قوله " ...واعلم أنك خُلقت للآخرة لا للدنيا ، وللفناء لا للبقاء ، وللموت لا للحياة .... ، وقوله "... ويأكُلُ عزُيزُهَا ذليلُهَا ، ويقهرُ كبيرُها صغيرَها . نَعَمٌ مُعقلة ، وأخري مُهملة ... ،وقوله "... احمل نفسك من أخيك عند صرمه علي الصلة ، وعند صُدوده علي اللطف والمقاربة ، وعند جموده علي البذل ، وعند تباعده علي الدنو ، وعند شدته علي اللين ، وعند جُرمه علي العُذر ....وقوله " ... واعلم أنَّ مالك الموت هو مالك الحياة ، وأنَّ الخالق هو المميت ، وأنَّ المُفْني هو المعيدُ ، وأنَّ المُبْتَلي هو المعافي ....، " ، ومن صور المقابلة

قوله " ... سلكت بهم الدنيا طريق العمي ، وأخذت بأبصارهم عن منار الهدي ... وقوله " .. رُبَّ قريب أبعدُ من بعيد ، ورُبَّ بعيدٍ أقربُ من قريب ... " .

- حفلت الوصية كذلك ببعض الصور الخيالية والأساليب البيانية الرائقة البديعة ، وهذا ليس بغريب أو بعيد عن الإمام علي بن أبي طالب وهو الأديب الذرب اللسان ، والكاتب البارع في الفصاحة والبيان ، فقد كان رضي الله عنه أكثر الخلفاء توظيفًا للصور البيانية ، وبعضها لا يخلو من طابع الصنعة الذكية والثقافة الواعية " [١] . فظهر أسلوب التمثيل والتشبيه واضحًا في الوصية كما في قوله " ..." إنما مثل من خبَرَ الدنيا كمثل قومٍ سَفْرٍ نبا بهم منزلٌ جديب فأمّوا منزلاً خصيبًا وجنابًا مريعًا ، فاحتملوا وعثاء الطريق ، وفراق الصديق ، وخشونة السفر ، وجشوبة المطعم ليأتوا سعة دارهم ومنزل قرارهم ، فليس يجدون لشيء من ذلك ألمًا ، ولا يرون نفقةً مغرمًا ، ولا شيئ أحبَّ إليهم مما قربهم من منزلهم ، وأدناهم من محلهم ، ومثلُ من اعترَّ بها كمثل قومٍ كانوا بمنزل خصيب فنبا بهم إلي منزل جديب ، فليس شيئ أكره إليهم ولا أفظع عندهم من مفارقة ما كانوا فيه إلي ما يهجمون عليه ويصيرون إليه ... " .

ففي هذه الصورة البيانية البليغة نراه قد ضرب مثلًا للدنيا في نظر المؤمنين المتقين بدارٍ خربَةٍ موحشة ،هجروها وقصدوا الآخرة دار العمران والبقاء ، وتحملوا في سبيل ذلك مشاق الدنيا وفتن الحياة ، ثم صوّر الدنيا في المقابل في نظر المغترِّين بها المترفين فيها بدار راحة وعمران كرهوا أن يتركوها وينتقلوا إلي الآخرة التي غفلوا عنها وخرَّبوها بأيديهم وغفلتهم عنها.

---

١) أدب الخلفاء الراشدين ص ٤٤٧ .

وتطلُ الاستعارة علينا من بين فقرات الوصية بجمالها وبيانها وذلك لإظهار الصور المعنوية في صور حسية ملموسة ، نلحظ ذلك في قول الإمام علي في وصيته " ...وأنك طريد الموت الذي لا ينجو منه هاربه ، ولابد أنه مُدركُه ، فكن منه علي حذرٍ أن يُدركَكَ وأنت علي حالٍ سيئة ... ".

حيث استعار لفظ الطريد للمشبه (الموت) وصَوَّره بوحشٍ أو بسبعٍ مفترس يطارد الإنسان طيلة مدة بقائه بالدنيا حتى يهجم عليه ويسلمه لأجله .

وظهرت الاستعارة كذلك في قوله " وإيَّاك أن تُوجف بك مَطَايا الطمع فتوردك مناهل الهلكة ..." حيث استعار لفظ المطايا للمشبه (الطمع) ووجه الشبه هنا كونها حاملة لنفسه العاقلة وما يطمع فيه من متاع كالمطايا الموصلة لراكبها إلي أغراضه وأهدافه .

وبدت الاستعارة المكنية واضحةً كذلك في قوله " ...وإياك أن تغترَّ بما تري من إخلاد أهل الدنيا إليها ، وتكالبهم عليها ، فقد نبأك الله عنها ، ونَعَت لك نفسها ، وتكشَّفت لك عن مساويها ... " .

فقد صور الدنيا بإنسان ينعي نفسه لأهله ويحذرهم من فتنتها وغرورها . وفي قوله " وأكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير ، وأصلك الذي إليه تصير ..." نلحظ استعارة لفظ الجناح للعشيرة (المشبه) كون العشيرة أمل نهوضه وقوته علي الحركة والسعي إلي نيل المطالب كجناح الطائر (المشبه به) الذي به يطير ويحقق هدفه.

وفي قوله " وجدتك بعضي بل وجدتك كلي " كناية عن مدي شدة اتصال الوالد بابنه وارتباطه الشديد به . وغير ذلك الكثير من صور الخيال والبيان التي حفلت بها تلك الوصية .

– حرص الإمام عليّ – كرم الله وجهه – في وصيته علي الاستعانة بضرب بعض الحِكَمِ والأمثال العربية الأصيلة ، وتارة ينشئ هو المثل

والحكمة بنفسه ويُضَمِّنه وصيته ، وكان رضي الله عنه من أكثر الخلفاء استعمالًا وتوظيفًا للأمثال العربية . " (١)

وتأتي أهمية الأمثال في قدرتها العالية في استمالة المتلقي والتأثير في نفسه ، حيث تميل النفس بطبيعتها وتهُشُ إلي سماع الأقوال الموجزة المأثورة ، والتي جاءت نتيجة خبرات وتجارب واقعية ، خاضها وعاصرها أهل التجارب والخبرات ، وترجموها إلي أقوال بليغة موجزة ومعبرة .

ومن تلك الحكم والأمثال في وصية الإمام علي لابنه الحسن قوله " فإن العَطِّية علي قدر النيِّة ..." وقوله " ... والمرءُ أحفظُ لسره ..." ، وقوله " وربَّ ساعٍ فيما يضَرُّه .." وقوله " من أكثرَ أهجر ..ومن تفَكَّر أبصر " ، وقوله " رُبَّ يسيرٍ أنمَي من كثير " ، وقوله " والصاحبُ مناسبٌ ، والصديقُ من صدَقَ غيبُهُ ، والهوي شريك العناء " ، "...ليس كل من رمي أصاب " ، إذا تغير السلطان تغير الزمان " ، " سل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار " .

ولا يخفي علينا ما في توظيف تلك الأمثال والحكم في الوصية من دلالة وتأكيد علي المعاني والأفكار التي قصد الإمام عليّ أن يسوقها إلي ابنه الحسن في إطار بليغ من التركيز والعمق والإيجاز ، ما يسهم ذلك في الاقبال علي الوصية والتعلق بها دون ملل أو ضجر .

-أما عن عاطفة الإمام علي بن أبي طالب في وصيته فقد بدت في أسمي وأصدق صورها ومظاهرها ، وذلك لنبعها من نفس ووجدان والدٍ محبٍ وحريصٍ علي ابنه ، وعلي ما ينفعه في حياته الأولي والأخرى ، من أجل ذلك ابتعدت عن الوصية وفقراتها عن الإسراف والتزييف أو الشطط ، واكتنفتها مشاعر المودة والمحبة الصادقة ، والحرص البالغ ، فخرجت الكلمات والتعبيرات صادقة من قلب الموصِي مقتحمة

١) أدب الخلفاء الراشدين ص ٤٤٦ .

قلب المتلقي دون أدني مجافةٍ أو رفض ، الأمر الذي جعلت اللوحات الفنية والجمالية في تلك الوصية تنبض بالحركة والحياة ، وتؤثر في النفس والوجدان .

-وأخيرًا يظهر لنا علي شكل الوصية العام التسلسل الفكري المنظم ، فنري كل فكرة تأخذ بعناق الأخرى وتسلِّم التي تليها في وضوح ويسر دون تكلف أو تباعد ، مما يفصح ذلك عن شخصية الإمام علي بن أبي طالب المنظمة في أفكارها ، الواعية لما توصي به .

وإن كانت تلك الوصية قد كشفت لنا مدي ما كان يتمتع به الإمام عليّ بن أبي طالب من بلاغة وأدب في القول والبيان فقد كشفت لنا كذلك عن عدة سمات وشمائل بدت في شخصية كلٍ من الإمام علي بن أبي طالب وابنه الحسن نفصل فيها القول في المبحثين التاليين :

المبحث الرابع

ما تكشفه الوصية من سمات شخصية الإمام علي بن أبي طالب

من خلال القراءة الواعية والنظر المتأني في فقرات ومحاور تلك الوصية العلوية نلحظ أنها تكشف لنا عن عدة جوانب وسمات من شخصية الإمام " علي بن أبي طالب " – كرم الله وجهه – وذلك لم تضمنته تلك الوصية من خلاصة فكر وخبرات وتجارب الإمام عليّ الدينية والحياتية الواسعة ، والتي حرص علي إسدائها وتقديمها بأمانة وصدق إلي أحبِّ وأعزِّ الناس لديه في الحياة وهو ابنه الحسن .

وقد قدمت لنا تلك الوصية الإمام عليّ بن أبي طالب علي أنه شخصية فذَّة وحكيمة ، يدرك بعمقٍ وحكمة أبعاد وحيثيات الأشياء من حوله ، وكشفت كذلك عن أنه رجلٌ محنَّكٌ وحصيفٌ ، تغلَّب علي أشدّ الأزمات والمحن ، واجتاز أصعب المواقف والأحداث التي تُستعصَي وتتأبَّي علي ذوي الأفهام والألباب ، وكشفت لنا كذلك تلك الوصية عن عدَّة جوانب وسمات في شخصية الإمام عليّ نوجزها فيما يلي :

- أظهرت تلك الوصية مدي ما كان يتحلي به الإمام عليّ بن أبي طالب – كرم الله وجهه – من زهدٍ وورعٍ بالغٍ في الحياة الدنيا ، وإعراضٍ تام وتجافٍ كبير عن متاع الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها الفانية ، حيث قدمته في صورة المعرض عنها الزاهد فيها وفي متاعها الفاني ، ونراه يصرِّح بذلك الأمر في مقدمة الوصية حينما تحدّث عن نفسه قائلًا : " ... من الوالد الفان ، المقر للزمان ، المدبر العمر ، المستسلم للدهر ، الذامِّ للدنيا، الساكن مساكن الموتى ، والظاعن عنها غدًا ... " بخلاف الحسن بن علي الذي كان يراه والده الإمام علي مقبلًا علي الدنيا مفتونًا بشهواتها ، وذلك في قوله له : " ... إلي المولود المؤمل ما لا يدرك ، السالك سبيل من قد هك ، غرضِ الأسقام ورهينة الأيام ، وعبدُ الدنيا ، وتاجر الغرور ، وغريم المنايا ، وأسير الموت ، ونُصب الآفات ، وصريع الشهوات ، وخليفة الأموات ..." .

- كشفت الوصية كذلك عن مدي حبّ الإمام عليّ لابنه الحسن ، وحرصه البالغ علي ما ينفعه ويصلح له دينه ودنياه ، الأمر الذي جعله يُضمّنُ له في هذه الوصية جُلَّ خبراته وتجاربه في الحياة ومع الأحياء ، حيث لم يترك شيئًا يعنيه من أمري الدنيا والآخرة إلا أسداه له ونصحه به في تلك الوصية الجامعة ، وهذا ما صرّح به الإمام عليّ في قوله للحسن : " .... ووجدتك بعضي بل وجدتك كُلِّي ، حتى كأن شيئا لو أصابك أصابني ، وكأن الموت لو أتاك أتاني ، فعناني من أمر نفسي فكتبت إليك ، مستظهرًا به إن أنا بقيت لك أو فنيت ... " .
- أبانت الوصية كذلك عمّا وصل إليه الإمام عليّ وقت إنشاء تلك الوصية وكتابتها للحسن من كبرٍ في السن ، ووهنٍ وضعف في الجسم ، "... أي بنيّ إني لمَّا رأيتني قد بلغتُ سنًا ورأيتني أزداد وهنًا بادرتُ بوصيتي إليك ... " حيث قد بلغ عُمر الإمام عليّ وقت إنشاء هذه الوصية بعد موقعة صفِّين ما يقارب الستين عامًا .

ومع تقدم السن به فقد ضعُف جسده وخارت قواه ، بعد أن كان يتمتع الإمام علي بعافية وقوة وشجاعة متناهية ، فد حكي جابر بن عبد الله قوله : " حملَ عليُ بن أبي طالب الباب علي ظهره يوم خيبر حتى صعد المسلمون ففتحوها، وإنهم جرُّوه بعد ذلك ، فلم يحمله إلا أربعون رجلًا " .(١)

- كشفت الوصية عن سِمَةٍ خاصة في حياة الإمام عليّ بن أبي طالب وهي كثرة نظره الدائم وتدبره الحكيم في سير السابقين من الأمم والأحياء ، وذلك بعمقٍ ودراية ومعايشة تامة مع تجاربهم وأحوالهم ، وذلك ظاهر من قوله للحسن : " ... أي بني إنِّي وإن لم أكن عمِّرتُ عمر من كان قبلي فقد نظرت في أعمالهم ، وفكرتُ في أخبارهم ، وسرتُ في آثارهم ، حتى عُدتُ كأحدهم . بل كأني بما انتهي إليّ من أمورهم قد عُمِّرتُ مع

١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٣٩ .

أولهم إلي آخرهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ، ونفعه من ضرره ، فاستخلصت لك من كل أمر نخيله ، وتوخيتُ لك جميله ، وصرفت عنك مجهوله ، ورأيت حيث عناني من أمرك ما يعني الوالد الشفيق ، وأجمعت عليه من أدبك أن يكون ذلك وأنت مقبل العمر ومقتبل الدهر ، ذو نية سليمة ونفس صافية ، وأن أبتدئك بتعليم كتاب الله وتأويله ، وشرائع الإسلام وأحكامه ، وحلاله وحرامه ، لا أجاوز ذلك إلي غيره ...) .

وفي ذلك الأمر دلالة وتأكيد واضح علي سَعةِ خبراته وعمق تجاربه ومواقفه في الحياة ، الأمر الذي يصقلُ تلك الوصية ويكسبها عنصر الواقعية والصدق الذي يجعل المتلقي يقبلُ عليها برغبةٍ واقتناع وقبول ، وليست كعبارات أو كلمات النصح والتوجيه الرتيبة المعادة المكررة .

- أظهرت الوصية بجلاء ووضوح جانب الحذر الشديد والحيطة البالغة في شخصية الإمام عليّ بن أبي طالب تجاه النساء ، حيث كان يأخذ منهن حذره ، ولا يأمن جانبهن ، الأمر الذي دفعه في ختام وصيته أن يحذر ابنه الحسن من مشاورة النساء والاعتماد علي آرائهن ، وكشفت كذلك عن غيرته الشديدة علي أهل بيته ونسائه ، والعمل علي حجبهن عن الناس قدر المستطاع اتقاء الفتن والأهواء .
- أظهرت الوصية كذلك العقلية الإدارية الحكيمة التي كان يتمتع بها الإمام عليّ في إدارة شئون الرعية والأمة ، ظهر ذلك من خلال حثه ابنه الحسن علي أن يكلف كل من يلي أمره من الخدم والعمال بعمل يقوم به ويُسألُ عنه ، " .... واجعل لكل إنسان من خدمك عملا تأخذه به فإنه أحرى أن لا يتواكلوا في خدمتك .... " .
- وأخيرًا كشفت الوصية بكل تأكيد ووضح مدي ما كان يتمتع به الإمام " عليّ بن أبي طالب " – كرم الله وجهه– من موهبة أدبية وفنية عالية وسليمة ، وكان علي قدرٍ عالٍ وكبير من فصاحة القول وذرابة اللسان جعلته من أرباب الأدب والبيان .

المبحث الخامس

ما تكشفه الوصية من شخصية الحسن ابن علي

وكما كشفت هذه الوصية الفريدة عن جوانب وسمات شخصية الإمام عليّ بن أبي طالب كشفت لنا كذلك عن عدة جوانب وسمات من شخصية ابنه الحسن ، وذلك من خلال نظرة أبيه إليه وتوسمه فيه من الخلال والصفات والسمات التي بني عليها وصيته له ، ولعل في طول واستطراد تلك الوصية ما يكشف لنا عن حب وحرص الإمام علي لابنه الحسن الأمر الذي جعله يخُصّهُ بتلك الوصية الفريدة البليغة عن سائر إخوته .

فهذه الوصية المُطوّلة تؤكدُ علي مدي توجس الإمام عليّ وقلقه البالغ علي ابنه الحسن ، مما قد يعتريه في قابل حياته من فتن وقلاقل ، ربما قد لا يستطيع التغلب عليها ومجابهتها ، مما دفعه أن يحصّنه بتلك الوصية التي ضمنّها الإمام علي شتي التجارب والخبرات الحياتية التي قد تواجهه في حياته .

-قدمت هذه الوصية الإمام الحسن شخصية مسالمة وهادئة ، بعيدة كل البُعد عن مجالات الصدام والاقتتال والحروب،علي الرغم من كثرة الفتن والاضطرابات التي كان يمُوج بها عصر الحسن بن علي ، فمن اضطرابات وخلافات وثورات دائمة للخوارج أثناء مدة خلافة أبيه الإمام عليّ والتي أودت بحياته واستشهاده إلي مبايعة الناس له بالخلافة وصدامه مع معاوية بن أبي سفيان ، ثم تنازله له عن الخلافة والحكم حقناً لدماء المسلمين ، ثم خروج أنصاره عليه ورفضهم لتنازله عن الخلافة لمعاوية وتجرئهم عليه بحدة وشدة ، كل ذلك والإمام الحسن لم ينجرف بالمسلمين نحو القتال والحروب ، وكان يميل دائمًا إلي المصالحة والسلم ، ولمِّ شمل المسلمين ولو تحت حكم غيره ، ولعلم الإمام عليّ بن أبي طالب بطبيعة وميول ابنه الحسن في هذا الجانب ما جعله ينأ في وصيته عن حثه علي العنف أو الشدة أو القتال .

- وفي تلك الوصية المطولة كثُرت توجيهات ونصائح الإمام علي للحسن بالحذر من الدنيا والركون إليها أو الافتتان بها ، وألا يغفل عن الآخرة التي خُلق لها " ... واعلم أنك خلقت للآخرة لا للدنيا ، وللفناء لا للبقاء ، وللموت لا للحياة ، وأن في منزل قُلعةٍ ، ودارٍ بُلغَةٍ ، وطريقٍ إلي الآخرة ..... " .

ولعل في كثرة تحذيرات الإمام علي لابنه الحسم من الميل إلي الدنيا والركون لها ما يكشفُ لنا عن جانب ميلِ الحسن إلي بعض زينة ومتاع الدنيا ، وأخذ نصيبه منها بوفرة وسعة ، مما جعل والده يخشي عليه من مفاتنها وشهواتها المهلكة ، ومما يؤكد علي هذا الجانب في حياة الحسن بن علي أنه قيل له : " إن أبا ذر يقول : الفقر أحبُ إليَّ من الغني ، والسقمُ أحبُ إليَّ من الصحة ، فقال أي الحسن : رحم الله أبا ذر ! أمّا أنا فأقول : من اتكل علي حُسنِ اختيار الله له لم يتمن أنه في غير الحالة التي اختارها الله له ، وهذا حدُ الوقوف علي الرضا بما تصرّفَ به القضاء " .[١]

ويؤكد علي ذلك الأمر كذلك كثرة زيجات الإمام الحسن بن علي ، حيث كان يكثرُ من التزويج والتطليق ، فقد أخرج ابن سعد : عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان الحسن يتزوج ويُطلق ، حتي خشيتُ أن يورثنا عداوة في القبائل " [٢].

وهذا الأمر لا يقدحُ ولا يذّمُ في شخص الحسن بن علي ، حيثُ لم يأت بذنبٍ أو سوءٍ يُشينه، ولكن غاية ما في الأمر ميله وركونه إلي زينة الدنيا بعض الشيء .

ولعل ذلك الأمر والمبالغة فيه هو الذي جعل الإمام علي يُحذّر ابنه الحسن من فتنة النساء والتعلقُ الزائد بهن ، ومشاورتهن في معضلات الحياة

١) تاريخ الخلفاء ص ١٥٨ .
٢) السابق ص ١٥٧ .

وجسام الأمور، ففي ذلك ما يتعارض مع طبيعتهن التي تتسم بالرقة واللين والضعف .

ومن خلال قراءة الأحداث وتاريخ حياة الإمام " الحسن بن عليّ " يبدو لنا أنه لم يضع هذا النُصح نُصب عينيه ولم يقدره حق قدره ،حيث تكشف لنا الأحداث أن موت الحسن بن علي كان علي يد زوجته " جعدة بنت الأشعث " التي أغراها يزيد بن معاوية بوضع السُم له مقابل أن يتزوجها من بعده ، وفعلت فعلتها بزوجها ولم يوف يزيد لها بوعده " [١] .

-وتأخذنا تلك الأحداث المؤسفة والمؤلمة في حياة الإمام الحسن بن علي إلي سِمَةٍ أخري من سمات شخصيته ألا وهي سمة الحلم واللين والأناة ، فلم يكن الحسن بن علي بالطائش المتهور ، أو الغضُوب المتسرع ، فكثيرًا ما كان يكظمُ غيظه ، ويعفو عمن ظلمه ، ويتحمل السفاهة والأذى من ولاة وأمراء بني أمية الذين كانوا لا يكُفُّون عن مغاضبته واستفزازه دائمًا ، حيث كان " مروان بن الحكم" يسمعه ما يكره ، وحينما مات الإمام الحسن بكي مروان في جنازته ، فقال له الحسين أتبكيه وقد كنت تجَرِّعه ما تُجَرِّعه ! فقال مروان : إني كنت أفعل إلي أحلم من هذا وأشار إلي الجبل "[٢] .

ووسِعَ بحلمه وكظم غيظه وبعفوه من أساء إليه في أحرج وأشدِّ اللحظات وآخرها في حياته ، فبعدَ أن دُسَّ له السم في شرابه جَهدَ به أخوه الحسين أن يخبره بمن سقاه السم فلم يخبره ، وقال له : الله أشدُ نقمةً إن كان الذي أظنُ ، وإلا فلا يُقتلُ بي والله برئ " [٣] .

١) تاريخ الخلفاء ص ١٥٨ .
٢) تاريخ الخلفاء ص ١٥٧ .
٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٥٨ .

الخاتمة

وبعد هذه الدراسة المتواضعة لوصية الإمام علي بن أبي طالب لابنه الحسن بدت لنا تلك الوصية العلوية الجامعة في أرقي درجات البيان الأدبي الإنساني الرفيع ، وقدمت لنا صورة مشرقةً لما كان عليه الإمام علي بن أبي طالب من ورعٍ ،وزهد ، وعلم ، وأدب، ومدي ما كان يحمله لابنه الحسن من مودة ومحبة وإشفاق ، جعله يفرغُ ما في جعبته الفكرية والعقلية والدينية من نصائح وتوجيهات وإرشادات لابنه الحسن ، استخلصها له من واقع تجاربه وخبراته الواسعة في الحياة ، قدَّمها له في إطار أدبي مكتوب ، لتكون له زادًا فكريًا وعقليًا يعينه في دينه ودنياه ، وحصنًا له من آفات الزمن وتقلبات الأيام ، لعله ينجو بها في دينه ويسعد بها في دنياه وأخراه .

- وقدمت لنا هذه الوصية صورة غير مباشرة للعصر وللبيئة الاجتماعية التي كتبت فيها ، وذلك بما حوته من تحذيرات وتوجيهات أسداها الوالد إلي ابنه من فتن العصر وأحداث الزمان ، وقدمت كذلك صورة لمبدعها ومنشئها أمير المؤمنين " علي بن أبي طالب " – كرم الله وجهه – وكذلك صورة لابنه الحسن – رضوان الله عليه – وما كان يتحلي به من صفات وشمائل ، وصورة للعصر الذي عاشه الإمام علي وابنه الحسن وما كان يعتريه من فتن وقلاقل ، وذلك في إطار فكري ومنطقي سليم ، وخصائص أسلوبية وتعبيرية قوية ومعبرة ، دلّت علي عمق في الفكر ، وحصافة في الرأي ، ودقة وسلامة في الأداء والتعبير والبيان .
- وأكدت الوصية كذلك علي شدة ارتباط الإمام علي بن أبي طالب بابنه الحسن وتعلقه الشديد به ، وحرصه البالغ عليه ، وعلي ما ينفعه ويصلحه في الدنيا والآخرة .

وفي الختام تبقي لنا هذه الوصية الفريدة بأفكارها الهادفة المصلحة ، ومضامينها ومعانيها الراقية قطعة من النثر الأدبي الإنساني الخالص ، أنشئت في أزهي عصور الإسلام وأيامه المجيدة ، صاغها الإمام علي بن أبي طالب بروح الأبوة الصادقة المفعمة بمشاعر الحب والحرص علي

الولد، نابعةً من مشكاة أنوار العلم والحكمة النبوية التي ورثها الإمام علـــيّ عن رسول الله صلي الله عليه وسلم صالحة لأن تكــون دُســـتورًا أخلاقيًــا وتوجيهيًا رائدًا ونافعًا للأبناء في كل جيلٍ وزمان ، يهتدون ويقتـــدون بمـــا وعته وحوته هذه الوصية الجامعة من توجيهات وارشادات كافية وكفيلة لأن تصنع للأبناء حياة سعيدة وهانئة ، وتُجنبهم الزيغ والفتن ، وتُصلحُ لهم دينهم ودنياهم وآخراهم .

رضي الله تعالي عن آل بيت رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وهدانا بهديهم، وأحيانا علي نهجهم ودربهم المستقيم ، وجمعنا بهم علي حوض نبينا المصطفي صلي الله عليه وسلم إلي يوم الدين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

المصادر والمراجع

*القرآن الكريم
* أدب الوصايا في العصر العباسي إلي نهاية القرن الرابع للدكتور أحمد أمين مصطفي الناشر مكتبة الأنجلو المصرية طبعة سنة ١٩٩٠ م .
*أدب الخلفاء الراشدين للدكتور جابر قميحة طبعة دار الكتب الإسلامية ودار الكتاب المصري .
*أدب الوصايا في العصر العباسي إلي نهاية القرن الرابع ، د أحمد أمين الناشر مكتبة الأنجلو المصرية طبعة سنة ١٩٩٠ .
*أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير المحقق: علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى سنة النشر: ١٤١٥هـ – ١٩٩٤ م .
* البيان والتبيين للجاحظ ا لناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت عام النشر: ١٤٢٣ هـ .
* البحث الأدبي للدكتور شوقي ضيف طبعة دار المعارف بمصر الطبعة الثاني.
*التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي المحقق: عبد الفتاح محمد الحلو الناشر: الدار العربية للكتاب الطبعة: الثانية، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م .
* الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ .
* الجامع الصحيح سنن الترمذي المؤلف : محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون .

*المعمرون والوصايا لأبي داود حاتم السجستاني طبعة دار الكتب العلمية بيروت .
* المسند الصحيح أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري الناشر : دار الجيل ببيروت ، سنة ١٣٣٤ هـ .
* المعجم الكبير لأبي القاسم الطبراني ، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة الطبعة: الثانية .
* الاستيعاب في معرفة الأصحاب المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي . المحقق: علي محمد البجاوي الناشر: دار الجيل، بيروت الطبعة: الأولى، سنة ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م .
* تاريخ الخلفاء للإمام جلال الدين السيوطي تحقيق مصطفي عبد القادر عطا طبعة مؤسسة الكتب الثقافية بيروت لبنان الطبعة الثالثة .
* تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، المؤلف أبو جعفر الطبري الناشر: دار التراث – بيروت الطبعة: الثانية – ١٣٨٧ هـ .
* تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت .
* دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة بو بكر البيهقي الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٠٥ هـ .
* سنن الترمذي لمحمد بن عيسي الترمذي تحقيق أحمد محمد شاكر وإبراهيم عطوة عوض ، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م .
* شذرات الذهب في أخبار من ذهب المؤلف: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، حققه: محمود الأرناؤوط خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط الناشر: دار ابن كثير، دمشق – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م .

*عبقرية علي . عباس محمود العقاد طبعة دار نهضة مصر للطبع والنشر.
* علي وبنوه لطه حسين طبعة دار المعارف مصر .
* عيون الأخبار أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) الناشر: دار الكتب العلمية –بيروت تاريخ النشر: ١٤١٨هـ .
* لسان العرب لابن منظور طبعة دار صادر بيروت لبنان الطبعة الأولي .
* مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي المؤلف: أحمد قبش بن محمد نجيب طبعة دار الرشيد سنة النشر ١٩٨٥ م .
*مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني المحقق: السيد أحمد صقر الناشر: دار المعرفة، بيروت .
* مناهج البحث الأدبي للدكتور سعد ظلام مطبعة الأمانة بالقاهرة .
* نهج البلاغة للشريف الرضي شرح الإمام محمد عبده طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان .
* نيل الأوطار محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني تحقيق: عصام الدين الصبابطي الناشر: دار الحديث، مصر الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .